سلسلة الكنيسة والمجتمع - ٢

بيت على صخر

أحاديث عن العائلة والزواج للمطران أثناسيوس
متروبوليت ليماسول

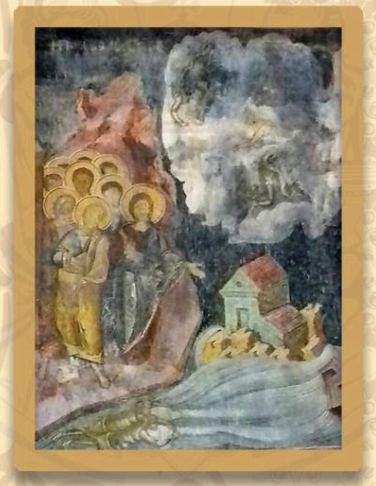

ترجمة

الشمّاس جاورجيوس يعقوب

منشورات بطريركيّة أنطاكية وسائر المشرق
٢٠١٩

بَطريَركيَّة أنطاكيـة وَسـائِر المَشْـرق لِلرُّوم الأرثوذُكسْ
Patriarcat Grec-Orthodoxe d'Antioche et de tout l'Orient

بيت على صخر

أحاديث عن العائلة والزواج للمطران أثناسيوس متروبوليت ليماسول

ترجمة الشمّاس جاورجيوس يعقوب

© جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى، تشرين الأول ٢٠١٨

بطريركيّة أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس

طالع الفضّة – دمشق – سوريا

الهاتف: ٠٠٩٦٣ ١١ ٥٤٢٤٤٠٠/١/٢/٣

الفاكس: ٠٠٩٦٣ ١١ ٥٤٢٤٤٠٤

العنوان البريديّ: بطريركيّة أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس،

ص. ب. ٩، دمشق– سورية.

www.antiochpatriarchate.org

التنضيد والإخراج:

المركز الأنطاكيّ الأرثوذكسيّ للإعلام

أيقونة الغلاف من جداريات دير القدّيس نيقولاوس فيلانثروبينون، جزر مدينة يانينا، اليونان. تعود إلى العام ١٥٦٠ ميلادي. وهي تصوّر «مثل البيتَين» الوارد ذكره في إنجيل القديس متى (مت ٧: ٢٤- ٢٧).

Monastery of St. Nicholas Filanthropinon, Ioannina Island, Greece

الفهرس

كلمة واجبة ٥
مُقدّمة للمطران نيقولاوس، أسقف أماثوس..... ٦
الجهاد الروحيّ في العائلة المسيحيّة ١١
الصلاة والتواضع في الحياة الزوجيّة..... ٢٣
شروط نجاح الزواج ٢٧
ميناء اليقظة في العائلة ٣٩
العائلة بركة أم صليب..... ٥١
التناغم العائلي..... ٦٣
الإنجاب وتربية الأولاد ٧٧
محطّاتٌ حياتيّة من وحْي خِدمة الإكليل ٨٧

كلمة واجبة

«شُكْرًا للهِ عَلَى عَطِيَّتِهِ الَّتِي لاَ يُعَبَّرُ عَنْهَا»
(كور ٩: ١٥)

والشكرُ الكبير أيضاً مع الامتنان القلبيّ لصاحب الغبطة أبينا يوحنّا العاشر، بطريرك أنطاكيّة وسائر المشرق على بركته ورعايتِهِ الأبويّة الدائمة؛

ولكلّ من تَعِبَ وساهم في إنجاح إصدار هذا الكتاب، من كلّ النواحي العمليّة والماديّة.

وأخصُّ بالذِّكر الأستاذ الياس فاضل المحبوب بالربّ، والذي اهتمَّ مشكوراً بالتدقيق اللّغوي.

الشمّاس
جاورجيوس يعقوب

†Ο ΕΠΙΣΚΟΠΟΣ ΑΜΑΘΟΥΝΤΟΣ
ΝΙΚΟΛΑΟΣ

Πρόλογος

Με πολλή πνευματική χαρά και αισθήματα σεβασμού, ευγνωμοσύνης και ευχαριστίας προς τον Μακαριώτατο Πατριάρχη Αντιοχείας και Πάσης Ανατολής κ.κ. Ιωάννη Ι' προλογίζω το δεύτερο αυτό βιβλίο των ομιλιών περί οικογενείας και γάμου της σειράς «Η Εκκλησία και η κοινωνία» με τίτλο «Οικίαν επι την πέτραν», που εκδίδεται υπό την μέριμνα και εποπτεία του Ιερολογιώτατου Διακόνου Γεωργίου Yaacoub.

Η ευγενής πρόταση του Διακόνου Γεωργίου Yaacoub να προλογίσω το βιβλίο αυτό δεν μου επέτρεπε να αρνηθώ τόσο από σεβασμό και υιική αγάπη προς τον Μακαριώτατο όσο και από αγάπη και συμπάθεια προς τους χειμαζομένους αδελφούς μας της «εν Αντιοχεία Εκκλησίας», εκεί όπου για πρώτη φορά οι μαθητές του Χριστού ονομάστηκαν Χριστιανοί.

Επιπλέον δεν μπορούσα να αρνηθώ, γιατί το βιβλίο αποτελείται από πνευματικές ομιλίες του Πανιερωτάτου Μητροπολίτου Λεμεσού και Γέροντός μου κ. Αθανασίου, επιστήθιου φίλου του Μακαριωτάτου Πατριάρχου Ιωάννου, οι οποίες αναφέρονται στον ιερό θεσμό του γάμου και της οικογένειας. Δυστυχώς, ο ιερός αυτός θεσμός πολεμείται από παντού και γίνεται οργανωμένη προσπάθεια αποδόμησης και αποϊεροποίησης του με την πρόφαση του εκσυγχρονισμού της κοινωνίας και των ανθρώπινων δικαιωμάτων.

Ο Μητροπολίτης Λεμεσού, μέσα από την πολύχρονη εμπειρία του ως πνευματικός αλλά και ως επίσκοπος της Εκκλησίας, με τον χαρισματικό, εμπειρικό και πρακτικό του λόγο εκφράζει την αγωνία του για τον ευαίσθητο αυτό χώρο της οικογενειακής ζωής αλλά και προσφέρει πνευματικές συμβουλές μέσα από τον θεόπνευστο λόγο του ευαγγελίου, τη φωτισμένη διδασκαλία των Αγίων Πατέρων και την

ΟΔΟΣ ΑΓΙΟΥ ΑΝΔΡΕΟΥ 306, Τ.Θ. 56091 - 3304 ΛΕΜΕΣΟΣ
ΤΗΛ. 25864300, 25342427 ΦΑΞ 25342429, e-mail: gramateia.amathountos@gmail.com
ΙΣΤΟΣΕΛΙΔΑ: http: //www.imlemesou.org

†Ο ΕΠΙΣΚΟΠΟΣ ΑΜΑΘΟΥΝΤΟΣ
ΝΙΚΟΛΑΟΣ

εμπειρία του από την επικοινωνία και συναναστροφή του με όσιους Γέροντες στο Άγιον Όρος, όπως τον Όσιο Παΐσιο τον Αγιορείτη κ.α.

Ευχαριστούμε για την έκδοση αυτή, η οποία τιμά την τοπική μας Εκκλησία και τον Μητροπολίτη μας, και ευχόμαστε ταπεινά, με τις ευχές του Μακαριωτάτου Πατριάρχου Ιωάννου Ι' οι πνευματικοι λόγοι αυτοί να φθάσουν «εις ώτα ακουόντων» και να πέσουν όπως ο σπόρος του σιταριού στις εύφορες και δεκτικές ψυχές των εν Χριστώ αδελφών μας και να καρποφορήσουν πνευματικά προς δόξαν Θεού και ψυχική ωφέλεια τους.

Μετά της εν Χριστώ αγάπης
και πολλών ευχών

†Ο Αμαθούντος Νικόλαος

ΟΔΟΣ ΑΓΙΟΥ ΑΝΔΡΕΟΥ 306, Τ.Θ. 56091 - 3304 ΛΕΜΕΣΟΣ
ΤΗΛ. 25864300, 25342427 ΦΑΞ 25342429, e-mail: gramateia.amathountos@gmail.com
ΙΣΤΟΣΕΛΙΔΑ: http: //www.imlemesou.org

مقدّمة لصاحب السيادة

نيقولاوس

أسقف أماثوس

(الأسقف المساعد في أبرشيّة ليماسول، قبرص)

بفرح روحيّ كبير، وشكر وامتنان لصاحب الغبطة بطريرك أنطاكية وسائر المشرق يوحنا العاشر أقدّم الكتاب «بيتٌ على صخْر»، وهو الكتابُ الثاني ضمن سلسلة «الكنيسة والمجتمع»، والذي يتضمّن محاضراتٍ حول العائلة والزواج. وقد اهتمّ بإعداده وترجمته قدس الشمّاس جاورجيوس (يعقوب).

لم أستطع رفض طلب الشمّاس جاورجيوس بأن أُقدِّم الكتاب، لجهة أنَّني أَكنُّ كلَّ الاحترام والمحبّة لشخص صاحب الغبطة، وتعبيراً منّي للمحبّة والتعاضد مع إخوتي المتألمين في كنيسة أنطاكية، هناك حيث «دُعي التلاميذ أولاً مسيحيّين».

أضف إلى ذلك، أنّ الكتابَ يتألّفُ من مجموعة أحاديث روحيّة، حول سرّ الزواج المقدّس والعائلة، لأبي الروحيّ المطران أثناسيوس متروبوليت ليماسول، والصديق الوفيّ لغبطة البطريرك يوحنا العاشر.

للأسف، إنَّ رباط الزواج المقدّس يتعرّض في أيامنا هذه لهجومٍ مُمنْهج، وذلك في محاولةٍ حثيثةٍ لهدمه وتدنيسِ قدسيّته بحجَّة تطوّر المجتمع وحقوقِ الإنسان.

والمطران أثناسيوس، نظراً لخبرته الكبيرة كأب روحيّ من جهة، وكراعٍ وأسقفٍ في الكنيسة من جهة أخرى، يُعبّر في أحاديثه بأسلوب أبويّ ومواهبيّ عن قلقه بشأن وَضْعِ الحياة العائليّة الحساس، ويُقدّم الإرشاد الروحيّ اللاّزمَ من خلال الكتاب المقدّس المُلهَم به من الله، ومن خلال التّعاليم المُنيرة لآباء الكنيسة القدّيسين، وأيضاً من خلال خبرته الآتية من تواصله وعلاقته مع آباءٍ شيوخ في الجبل المقدّس آثوس كالشيخ القدّيس باييسيوس الآثوسي.

نشكُركم على هذا الإصدار الذي يُشرِّف ويُكرِّم أبرشيّتنا ومتروبوليتَنا.

ونأْملُ أن يكون لهذه الأحاديث الروحيّة، بصلوات البطريرك يوحنا العاشر، آذانٌ صاغيةٌ؛ وأن تَسقُط كحبوب الحنطة على نفوس خصبةٍ وتُثمرَ روحياً لمجدِ الله وللمنفعةِ الروحيّة.

مع محبتي بالمسيح يسوع والأدعية الحارّة

+ نيقولاوس

أسقف أماثوس

الجهاد الروحيّ في العائلة المسيحيّة

خبرتي المتواضعة، من خلال سرّ الاعتراف والإرشاد الروحي للعديد من إخوتنا الذين يجاهدون في العالم، وسط الجوّ المبارك للحياة العائليّة، جعلَتْني أُكوِّن نظرةً بسيطةً حول عدّة تساؤلات بشأن العائلة، وخصوصاً حول السؤال الأكثر شيوعاً بين الناس: «نحن الذين نعيش في العالم والمجتمع وفي خِضَمِّ العائلة، هل نخلُص؟ هل يمكننا أن نصل إلى المستوى الروحي الذي وصل إليه القدّيسون الذين نقرأ سِيَرَهم في الكتب؟»

هذا موضوعٌ هامٌ جداً، ويمكننا التوقُّف عنده، لنرى كيف يتحقّق الجهاد الروحي وسط العائلة، وكيف تُحارَب الأهواء ويُشفى الإنسان ويتقدّس.

الحياة المسيحيّة في العائلة هي صورة لشِرْكَةِ الإله المثلث الأقانيم. العائلة، كشركة أشخاص، تُصوّر المحبّة الكاملة لشركة الثالوث القدّوس، حيث تُحافظ الأقانيم الثلاثة على خاصيَّتها دون الذوبان في الاتحاد بل تحافظ على وحدانيتها في الجوهر دون انقسام أو انفصال، وهذا يُعطي خاصيّة مميزة لوحدة الثالوث القدوس. يصفُ التعبير الشائع «واحد في ثلاثة وثلاثة في واحد»، دقّةَ العلاقة الإلهيّة الثالوثيّة، وبالوقت عينه المثال الأعلى لكلّ عائلة حقيقيّة. وبما أنّ الأخلاق المسيحيّة مستلهمةٌ من العقيدة القويمة، فإنّ دور الإنسان الصحيح في العائلة هو الخلاص، وتحقيق شخصه ضمن هذا الاتحاد في هذه الشركة العائليّة، عبر سرّ المحبّة حيث يشكّل الأعضاء جسداً واحداً غير منقسمٍ وغير متجزئٍ.

يرى آباء الكنيسة جميعاً أنَّ أي انقسام أو انفصال في العائلة يعود إلى كسر كلِّ فردٍ من أفرادها جمال «الصورة الإلهيّة» للخلقِ فيه، والتي ينتج عنها التفرّد والتغرّب بكلِّ نتائجِهِ المحزنة. الأهواء نتيجة للسقوط، وهي العدو الأول

والدائم لخلاصنا، ومرض طبيعتنا البشريّة. لهذا، يصطدم الإنسان في شتّى مراحل حياته، بحائط الأهواء القاسي، وعليه أن يتخطّاه ليكون في حياة شركة محبّة مع خالقه، الإله الحقيقي الحيّ، ومع إخوته البشر كأيقونات إلهيّة أيضاً. إنَّ مبدأ شِرْكَةِ المحبّة أساسيٌ في حياة العائلة، وإنَّ للعلاقات الوطيدة والمترابطة بين أفرادها دورٌ مهمٌ في تثبيتها وجعلها جسماً صلباً متماسكاً، غير قابل للذوبان، يحمل كلَّ الأثقال كشخص واحد. إنَّ القدّيسين، بفضل خبرتهم وحكمتهم التي من الرّوح القدس، وتعلُّمهم من حياة الرَّب يسوع المثاليّة، صنّفوا الأهواء الرئيسيّة، واختاروا منها ثلاثة أهواء، مطلقين عليها اسمَ «الأهواء العمالقة»، التي هي مصدر كلِّ الأهواء، وهي أيضاً سلاحُ العدو المتنوعُ الأشكال في حربه ضدّ خلاصنا. وقد اعتبرها الآباء رئيسيّة لأنَّ الشيطان جرّب السيّد بها عندما صام في البريّة، واستطاع بواسطتها أن يبتلِع العالم بأسره، لأنَّها تُشكل دائرة المراوغة الشيطانيّة الكاملة. هذه الأهواء العملاقة هي: المجد الباطل، ومحبّة الذّات، والشهوة. أمّا هدفها فهو تدمير كلِّ شيء، ابتداءً من الإنسان، ومروراً بمحيطه،

فعائلته، إلى أن تصل في ذروتها إلى إسقاط صورة الله وحضوره فينا وفي حياتنا.

أولاً، المجد الباطل أو الأنانيّة. هو نبع وأصل كلّ فساد وخطايا ما بعد السقوط. يُعمي الذهن (النوس) ويطرد نور الله، ويطرح الإنسان في خطايا جسيمة، ويؤدّي به إلى الفشل. يُضعِفُ القدرةَ على معرفة الواقع المُعاش، فيجعلنا نحيا في عالم وهميّ مصنوع من نسج الخيال المريض بالأنا.

هذا الهوى يُعالج ضمن الجوّ العائلي بواسطة التسامح والصبر، وقبول المشورة من الآخر. ويُعالَجُ عندما لا يستسلم الإنسان لآرائه وقراراته الخاصّة، بل يتواضع متقبّلاً آراء الآخرينَ، ويطيعُ قاطعاً ومضحياً بمشيئته؛ عندها يتحرّر الإنسان من أربطة الأنانيّة بواسطة حريّة التواضع. هذا الأخير ينبع من قلب الرّب يسوع ويترافق دائماً مع الوداعة. التواضع والوداعة هما العمودان الأساسيان اللذان يحملان كلَّ البناء العائلي المُثْقل بالضغوطات والهموم الخارجيّة والداخليّة. إنَّ الوداعة هي المرشد الأساسي

للعائلة وسط الأجواء الماديّة والنفسيّة المتعدّدة التي تجابهُها. هي التي تجعل أفرادها مجتمعين وفي تواصل دائم وتقودهم إلى الكمال والنضوج.

ثانياً، محبّة الذّات. هذه المحبّة الجامحة والمتمادية في عبادة الأنا، لدرجة الاستئثار بكلِّ ما يحيط بالذّات وتفضيله على كلِّ شيء. هي شكلٌ واضح من التفرُّد الأقصى الذي يُفكِّك كلَّ ارتباط بالآخر بسبب ضعف مقدرة الإنسان على إنكار ذاته.

هذا الهوى يولّد التمرُّدَ والعيشَ المنفردَ اللذان يدمران أُسس العائلة، ويؤثران سلباً على علاقة الأولاد مع بعضهم بسبب طريقة حياة الأهل الفرديّة.

عندما تكون الأنا والعُجب والراحة الشخصيّة معياراً لحياة البشر ومشاعرهم، نَفهمُ سبب الخلافات الزوجيّة والانفصال الزوجي وسبب سماع عبارات غريبة، مثل: «ما يفعله لا يعبّر عنّي، لا يعجبني» أو «هو لا يفهمني إذاً لا يناسبُني». إنَّ

محبّة الذّات تجعلُنا قساةَ القلب، عمياناً، بلا منطق وعادمي الحسّ. كما تدفعنا لإرضاء ذاتنا غير آبهين لكلّ ما يحدث حولنا، حتى لجراح أفراد العائلة وخاصةً الأولاد.

لهذا شخَّصَ الآباءُ القدّيسون المحبّةَ اللامحدودة دواءً لمحبّة الذّات. فهي لا تُفكّر بما لنفسها، وتتّخذُ من الرّب يسوع المسيح معلّماً لها وهو الذي بذل نفسه من أجل حياة العالم. هذا يتمّ أوّلاً عندما نوجّه كلّ مشاعر المحبّة التي في داخلنا بطريقة صحيحة وصادقة نحو الله، وبواسطته نحو أخينا الإنسان، ومن ثمّ نحو الخليقة بأسرها. لهذا على أفراد العائلة أن يسلكوا نهج الحياة في المسيح، حتى يدركوا هدف المحبّة؛ كيف تبدأ، وإلى أين تؤدّي، وأن يعرفوا مسيرتها الحقيقيّة. حينئذٍ، وبالحياة في المسيح فقط، تُصان العائلة، وتبقى هذه المحبّة فيها نقيّة ومُحصّنة ضدّ المشاعر المريضة والمزيفة وضدّ الفرديّةِ القاتلةِ أيضاً.

ثالثًا، حبّ الشهوة. إنَّها أفعى قويَّةٌ مميتةٌ، خاصّة عندما تتَّحِدُ مع حبِّ الذّات والمجد الباطل. هي تظهر، بعامّة،

عند رفض إعطاء طابعٍ سامٍ للعلاقة الجنسيّة. إنَّ جذورَ حبِّ الشهوةِ موجودةٌ في النَّفس الساقطة المريضة، وفي الذهن المبتعد عن الله. ويظهر ذلك جليّاً من خلال نظرة الإنسان لجسده، الذي هو هيكل الرّوح القدس وعضوٌ كريمٌ في جسد المسيح.

بالنسبة للواقعينَ تحت تأثير هذا الهوى، يكونُ هدف الزواج، والحياة كلّها، شهوة جنسيّة فقط، حيثُ تتركّز كلّ تصرفاتهم لتلبية هذه الشهوة وتحقيقها. هنالك فرق كبير بين الشهوة الجنسيّة والعلاقة الجنسيّة الزوجيّة، فالأولى هي عكس الثانية تماماً، لأنّها تجعل حياة الشِرْكَةِ والعلاقاتِ الشخصيَّة عقيمَةً، ولأنَّها تُحدِرُ الإنسان من مستوى الإنسانيّة إلى مستوى السلعة.

يَستندُ هذا الهوى، في معظم الأحيانِ، على المظهر الخارجي وليس على العمق الداخلي. الشهوةُ نزوةٌ عابرةٌ، غيرُ ثابتةٍ، فإذا سيطر حبُّ الشهوة على الإنسان، يجعله عبداً وأسيراً له، ويرميه في طرقات بعيدة عن بركة الله والحريّة

الحقيقيّة التي في كنيسة المسيح يسوع. إنَّ السقوطَ تحت نير حبّ الشهوة يضربُ أواصر الرِّباط العائليّ المبنيِّ على المحبَّة بشكل مُميتٍ، ويطمس كلَّ أشكال الاحترام الموجود فيه، ويدمّرُ قدسيّة العلاقة الجنسيّة الزوجيّة التي «تشتهي» بعفّة وطهارة ورقيّ.

يمكنُنا أن نواجه هذه «الأهواء العمالقة» الثلاثة ونحن في كنف الكنيسة التي هي المشفى الروحي. وإنَّ عيش الفضيلة والجهاد الروحيّ يساعدان الإنسان في العيش بطريقة صحيحة، ويلعبان الدور الأساس في مراقبة الأفكار بدقّة ومحاسبتها بحسب القدّيس مكسيموس المعترف.

إنَّ النسك والجهاد الروحيّ بشكل عام، والمحبَّة والعشق الإلهيّ بشكل خاص، يُبدِّلان الإنسان الأهوائيّ ويقدّسان حركات النفس والجسد، ويحرّران الذهن، المدّبر الأساسي لحياة الإنسان، من قيود الأهواء، ويقودانه نحو التقديس والحكمة. بهذه الطريقة يحافظ الإنسان على مستوى صورة الله عند خلقه، وعلى مثاله في مسيرته وهدف حياته.

«الأهواء العملاقة الثلاثة» تُحارب كلَّ إنسان في مسيرة حياته. لا يَسلم منها، من سلكَ في السّيرة الرُّهبانية، أو من سلك طريقَ الزواج والعائلة، وذلك مع بعض الفروقات والاختلافات في الأساليب. ولكن، يبقى هدفها واحداً: أن يفشل الإنسان في نيلِ الخلاص وأن يفقُد القداسة في نهاية حياته.

لهذا يوصي القدّيس يوحنا الذهبيّ الفم الناس بقوله «اجعلوا بيوتكم كنيسة»، كنيسةً وهيكلاً لعبادة الله بواسطة البرنامج الصلاتيّ اليوميّ؛ حيثُ تَجتمعُ العائلة، كلُّ أعضاء العائلة، أمام الآب السماوي. هناك يطلبون الرَّحمة والمحبّة الإلهية، ويتوبون عن أخطائهم وسقطاتهم اليوميّة ويتقبّلون النِعَمَ الحسنةَ التي من الرّوح القدس.

الحياةُ المشتركةُ ضمنَ الحياة الزوجيّة، والعيشُ تحتَ سقفٍ واحدٍ في البيت ككنيسة صغيرة، تكسر قَساوة الشخصيّات الحادّة، وتُقرّب المسافات بين القلوب. إلاّ أن الحياة العائليّة التي تُبنى من دون المحبّة التي في المسيح يسوع،

تكون مشيّدة على أساساتٍ رمليَّةٍ هشّةٍ، ومتزعزعةٍ، مما يعرّضها للسقوطِ بسهولةٍ.

من المفيد جداً أن تجتمع العائلة تحت جناح أبٍ روحيٍّ واحد، إذ يقوم بتدريب كلِّ أفرادها سويّة على الاستناد على صخرة الإيمان، المسيح يسوع، وكنيسته؛ لأنَّ العَقبات، أي التجارب والأحزان كثيرةٌ في هذه المسيرة المباركة. هكذا يمكن للعائلة أن تواجه أمواج هذا العالم التي تلاطمها من كل حدبٍ وصوبٍ. إنَّ سرّ العائلة والزواج عظيم في عينيّ الرّب والكنيسة.

لقد أخلى المسيح ذاته، وصار إنساناً، وهو ما فتئ يغذّي البشر ويضحّي بنفسه كعريس سماوي، في سبيل الكنيسة، وهو سيبقى إلى الأبد رأساً لها. وكما أنَّه لا يمكن للكنيسة أن توجد بدون المسيح، ولا يمكن للمسيح أن يعطي الأسرار المقدسة للإنسان من دون الكنيسة؛ كذلك أيضاً في العائلة، لا يمكن لأحد أن يعيش من دون الآخر، ولا يمكن أن تكون العائلة جسداً واحداً إنْ لم يكن المسيحُ رأسَها.

إنَّ مسرَّة مشيئة الرّب الأساسيّة هي خلاصُ كلّ واحد منّا وتألُّه. لهذا لا تكون العائلةُ والرهبنةُ، على حد سواء، هدفاً بحد ذات كلّ منهما ولكنهما تكونان طريقين لخلاصنا. فلا يتقوقع أفراد العائلة على ذاتهم بل يسيرون سويّة نحو الرب يسوع.

تُقيَّمُ الحياة الإنسانيّة المتعدّدةُ الأنماط، على أساس قيادتنا إلى ملكوت الله السماوي. فالرب يدعونا «اطلبوا أولا ملكوت الله وبرّه، وكلُّ شيء يُزاد لكم» (مت ٦ : ٣٣). لهذا، إن لم يكن الوصول إلى المسيح هدف العائلة يكون ثمرُها وقتيّ، وضعيف، ويُحكم عليها بالموت الروحيّ بسبب نمطيّة عيشها في الدهر الحاضر. لا تُحقّق العائلة هدفها بنجاحات أعضائها العالميّة وحَسبْ، ولكن بتماسكها ووحدتها حتى النهاية عبر تقدّس كلِّ أفرادها وتألُّههم. كلُّ تقييمٍ للعائلة، استناداً إلى المعايير العالميّة والبشريّة، هو إجحاف بحقِّها، وحدٌّ لنشاطها ودورها ورسالتها.

يقول أحدُ الآباء الآثوسيين المعاصرين: «عندما نتعلّم

أن نتخطّى كبرياءنا نصبح أعضاء حقيقيّين في عائلاتنا، وعندما نكون كذلك، يُنبَذُ الكبرياء، عندها نُصبح أعضاء حقيقيّين في العائلة الكبرى، عائلة البشرية، عائلة آدم الجدِّ الأول، ونستطيع أن نصلّي إلى الله من أجل كل العالم». هذا ليس سوى دلالة لسُكنى الرّوح القدس في قلوبنا.

لهذا، ليس صدفةً أبداً، أن يكون للقدِّيسين الأقمار الثلاثة، رؤساء الكهنة العظام: باسيليوس الكبير، وغريغوريوس اللاهوتيّ، ويوحنا الذهبيّ الفم؛ ثلاثُ أمهاتٍ قدِّيساتٍ في كنيستنا. فالآباء القدِّيسون ثمارُ عائلاتٍ مقدّسة.

إذا كنا نريد إصلاحَ العالم، فلنبدأ أولاً بذواتنا وعائلاتنا.

الصلاة والتواضع في الحياة الزوجيّة

نعيشُ في الحياة الزوجيّة، حضوراً حقيقياً للمسيح، وهذا ما يجب ألاّ يَخفى عن ذهن الزوجَين لأنَّ سرّ الزواج يُتمَّم باسم يسوع ويقودُنا إليه. يتخطّى الزوجان كلَّ المشاكل والعقبات التي تواجههما في مسيرتهما إنْ عاشا هذا السرّ وأدركا قدسيّته.

سنواجه يا أحبَّتي، سواء في الحياة الزوجيّة أو في الحياة الرهبانيّة والنسكيّة، عدَّة عقبات وصعوباتٍ وتجارب؛ وقد تطالُنا بشكلٍ شخصيّ، أو تطال الشَّريك الآخر، أو الزوجين معاً. رغم ذلك علينا مواجهتها بالاتكال على الله. لهذا على الشَّريكين أن يتعلّما منذ البداية طُرق اللجوء إلى الله. وما لا يُحَلّ بالطرق البشريّة، يُعالَج بالصلاة، لأنْ

بها فقط تصطلح الأمور، ومهما كانت الطرقُ البشريةُ جيّدة ومباركة، إلاّ أنَّها لا تكتَمل إلاّ بالصلاة.

اكتشفتُ، مع الوقت، أنَّ الحياة الرهبانيّة والزواج لا يختلفان إلاّ بالشكل، ولا فرق جوهريّ بينهما. الراهبُ الصالح يمكنه أن يكون زوجاً صالحاً، والعكس صحيحٌ. وإن كان الراهب مجتهداً، سيكون في الزواج زوجاً مجتهداً أيضاً، لأنهُ سيُبدي التزاماً في كِلا الطريقين لأنَّ الأساسَ هو شخصيّة الإنسان.

أمّا التجارب، فهي قاسمٌ مشتركٌ لكلا الطريقين. تكثُر التجارب في الحياة الرهبانيّة وخاصّةً أثناء الصلاة. أمّا في الحياة الزوجيّة فتُعلّمنا التجاربُ أن نصلّي بحرارة؛ إمّا مع الشَّريك، أو مع الأولاد، أو في العمل، أو مع الأقرباء. يمكن لأيّ موضوعٍ صغيرٍ في الزواج أن يتسبَّب بمشكلةٍ كبيرة. لذا علينا أن نحاول مُعالجةَ المشكلة قدر المستطاع بالأساليب البشريّة، ولكن الأهمّ أن يترافق ذلك بصلاة حارّة. هذه هي الطريقة الأولى المفضّلة.

تُعلّمنا الخبرة المتواضعة أنّ من يصلّي يَستفيد ويُفيد غيره، أمّا الصُّراخ والمواقف السلبيّة والثرثرة والشِّجار فتُسيء جداً، كمَن يصبّ الزّيت في النار.

ليست المشاكل محصورة بما يخصّ الشَّريك الآخر، بل تتعداه إلى الأولاد وتلعب دوراً مهما في تربيتهم ومشاكلهم اليوميّة في المدرسة، والمجتمع وأجوائه، وفي الزواج ومفاعيله وغيرها... هذه هي الحياة، وهذه طبيعتها. الصلاة تحلُّ كلّ صعوبات الزواج وتُريح الزوجين وأفراد العائلة.

الطريق الثاني هو التواضع، إذ يقول القدّيس أنطونيوس الكبير: «رأيت فخاخ الشرّير منصوبةً في الأرض وقلت من يُمكن أن ينجو؟ فكان الجواب المتواضع!». علينا أن نتعلّم التواضع. من لا يتواضع يبعُدُ عن شركة الزواج. يُترجَم التواضع بالاعتذار. من لا يعتذر ويسامح ويتخطّى أنانيّتَه لا يمكنه الاستمرار؛ إلاّ إذا كان الآخرُ قدّيساً. من المهمِّ جداً أن نعتذر في الزواج، من الشَّريك أو الأولاد، ولا نسمح أن «تَغرُب الشمسُ على غضبنا» (أف٤: ٢٦).

يجب أن يكون الاعتذار خالياً من الحُجج كيّ يُثمر فينا، وفي أولادنا.

يصير الزواج مباركاً وناجحاً، ومثمراً روحياً ومادياً، عندما نكون منتبهين في حياتنا الزوجيّة، محوّلينَ السيئات إلى صالحات بالصلاة والتواضع. عندما يفهم الإنسان أنَّه في سرّ الزواج يدخل في سرّ الملكوت، تأتي كلُّ صالحاتِ الدنيا إلى داخل بيته الزوجيّ. هذا هو أساس الزواج الناجح. أما إذا بُني الزواج على أساسات متزعزعة، ستكون الأمور صعبة.

ليكن الربّ وحده رجاءنا ومخلّصنا، خاصّة في هذه الأيام، إنْ في الزواج أو خارجه، مع الأولاد أو بدونهم. ولنعلم أنَّ إيماننا بالله واتكالنا عليه، هو الضمانة الوحيدة لحياةٍ مباركة.

شروط نجاح الزواج

قرارُ الزواج هو من أهمّ القرارات التي يتّخذُها الإنسانُ في حياته، وهذا القرارُ يتطلَّب وعياً وجديّةً، إن على صعيد التهْيئة واختيار الشَّريك في البداية، ولاحقاً في مسيرة الارتباط الفعليّ. ولأنَّ القرارَ جديٌّ، يتوجّبُ على الإنسان أن يطلبَ البركة الإلهيّة والإرشادَ الصحيح، وأن يطلبَ بشكل خاصٍ من الله أن ينيره كي لا يقعَ في أيِّ خطأ قد يؤدّي به إلى نتائجَ صعبة. من يعرفُ هدفَ الحياة بشكلٍ عامّ والزواج بشكلٍ خاص، يفسحُ المجال دوماً لتصطلحَ أمورُ الحياة بالطُرقِ والوسائل الروحيّة التي بها يتحقَّق الهدف المنْشود، مهما كانت ظروفُ الحياة.

ليس المهمُّ أن يتزوجَ الإنسانُ أم لا، أن يُنجبَ الأولادَ

أم لا، أو يصبحَ راهباً أم لا؛ إنّما المهمّ أن تكون أعمالُه وتصرفاتُه نابعةً من رؤيةٍ وهدفٍ مُحدَّديْن في ملكوت الله أولاً وفي الحياة الحاضرة ثانياً. والمهمّ أيضاً، أن يعرفَ الإنسانُ أنَّ المسيح لا يشترطُ عليه أن يُعاني تجاربَ كي ينالَ الفردوس، بل يريده أن يعيش حياتَه الحاضرة براحة، أن تكون جميلةً وناجحة إذ يقول «قد أتيتُ لتكونَ لهم حياةٌ وليكونَ لهم أفضل» (يو١٠: ١٠). لذا على الإنسان أن يبتعد عن السلبيّة التي تُعكّر حياته ومحيطَه وأن يتحلّى بالإيجابيّة لكي يرتاحَ وحتى يكون كلّ شيء حوله سلاميّاً.

من المؤكدّ أنَّ مَنْ يمتلكُ السلام في داخلِه يستطيعُ أن يُتمّمَ كلَّ أمور حياته بسلامٍ وراحة، وهذا ما ينطبق على الحياة الزوجيّة أيضاً، إذ يمكن إيجادُ حلولٍ لكلِّ المشاكل مهما كان مزاج الشَّريك أكثرَ صعوبة، لأنَّه يتعلَّم أنَّ الصبرَ وطول البال هما أساسُ التعاطي مع الآخر، وهنا تكمن الصعوبة بالطبع. في بعض الحالات، قد يكون الحلُّ سهلاً وقد لا يكون، وإنْ لم يحصل الإنسان على ما يريده ويرجوه، عليه أن يتعاطى مع الموضوع بروح سلاميّة، وأن يفهمَ أن الموافقَ لحياتهِ لن يكون

بحصولهِ على ما يريده دوماً. قد يتمنّى المرءُ أن يُنجبَ الكثيرَ من الأولاد، أو أن يؤسِّس عائلةً مثاليّة، وربّما لم يتحقَّق هذا الأمر لأسباب معيّنة، عندها عليه أن يتقبَّل هذا الأمر بروح سلاميّة، وأن ينظُرَ إلى ما يحصَل نظرةً أُخرويّة لا دهريّة.

في هذه الحال يكون للزواج الدورُ الأساسيُّ في مسيرة حياة الإنسان نحو الملكوت، وبحسب مشيئة الله. عندها فقط يُصبحُ للزواج معنى، وبغير ذلك يبقى مناسبةً اجتماعيّة، وصنماً مُعرّضاً للوقوع والانكسار رُغمَ أهميّته. لهذا على الإنسان أن يستعدَّ دوماً لمواجهة كلِّ الحالات والمواقف التي سيتعرّض لها في حياته.

من المهمّ أن نُشيرَ إلى أنَّ الانطلاقةَ الصحيحة تكونُ عند اتخاذ قرارِ الزواج، إذ يكون الإنسان في هذه الحالة قد حدَّد هدفَهُ، ورسم إشارةَ الصليب وانطلقَ متكلاً على الله. لكن في الوقت نفسه على الإنسان أن يعرفَ، منذ البدايةِ، أن الزواج يتطلّبُ بساطةً في التفكير رُغمَ أهميّةِ كلِّ التفاصيل الأخرى، وأنَّ الزواج ليس حقلَ تجارب. لهذا تكون مرحلةُ

التعارف بين الشَّريكين مرحلةً مهمَّةً جداً؛ فإذا شعر الإنسان باضطراب في سماء العلاقة، وبوجود بعض الصعوبات التي تُعيقُ تقدُّمَها، فمن الخطورةِ أن يُكمل المسيرة، لأنَّه قد يدخلُ مضمارَ العلاقة دون أن يكون قادراً على الخروج منها.

لهذا حدّدتِ الكنيسةُ الخطوبةَ كفترة تعارفٍ وتَهْيئةٍ، تتميّز أساساً بالانضباط. أقول الانضباطَ وعدَم القيامِ بعلاقةٍ جسديّة مع الآخر يحافظان فيها على نقاوةِ الذِهن ويساعدانِه على أن يعمل بشكل صحيح؛ أمّا إذا تحكمّتِ الأهواءُ الجسديّةُ بالإنسان واستسلم لها، فعندها لن يكونَ بمقدورِه أن يُقرّرَ مصيرهُ بسهولة، لأنَّه يدخلُ في حيثيّاتِ الأهواء وتصبح هي المعيار، مما يُعيق إمكانيّة اتخاذِ القرارات المناسبة.

هنالك الكثيرُ من الأزواج الذين لا يحبّون بعضَهم بعضاً، ولا يعرفان أنّ علاقتَهما لا تتقدَّمُ أبداً، وأن حياتَهما تتدمّر، إلاّ أنّهما لا يلجآنِ للطلاق لأنّ ما يجمعَهما للأسف هو علاقة نفسُجَسَديّة فقط. من هذا المنطلقِ، تساعدُ الكنيسةُ

أولادَها بتعليمهم الانضباط قبل الزواج، وذلك لكي يمتلكوا حكمةً وتمييزاً في تعاطيهم مع الشخص الآخر بعيداً عن الرابط الجسديّ الأهوائيّ. لذلك عندما يعرفُ الإنسانُ الشخصَ الآخر جيداً ويكتشفُ الصّفاتِ المشتركة بينهما، يرغب في استمرار العلاقة معه بدون شكّ، فيرسمُ إشارة الصليب ويتابع الطريق. أما إذا رأى أنَّه لا وجودَ لعناصرَ مشتركة تجمعه بالآخر يَحُسن به أن يتوقف فوراً. لأنَّه إذا دخل في حياة زوجية وعائليّة من دون اتّفاق تواجهه المشاكل الجديّة والصعوبة. في هذه الحالةِ لن تعودَ نتائجُ الزواج غير الناضح على الزوجينِ فقط، بل وعلى الأولادِ وكلِّ من حولهُما. لهذا أُعيد قولي مجدَّداً أن يكون الإنسان واعياً في هذه المرحلة، وحكيماً مُنتبهاً في تصرّفاته.

من جهة أخرى، على الإنسان أن يكون متفائلاً، وألاّ يفكّرَ بالأمور السلبيّة والمؤديّة إلى فشل العلاقة الزوجيّة، أي ألاّ يضعَ دائماً أفكاراً سيئةً في ذهنه عن العلاقة التي يعيشها مع الشَّريك، بل فليهدأ قليلاً مُبتعداً عن التّسرّع في اتّخاذ قراراته. وعليه في الوقت نفسهِ أن يتذكّرَ دوماً أنَّ شريكَهُ

ذو طبيعة بشريّة، أي إنَّهُ إنسان معرّضٌ للخطأ. لا تُحلّ المشاكلُ، ولا تُقاسُ المُعطياتُ في العلاقة الزوجيّة استناداً إلى معاييرَ مُسبَقةِ التحديد، ولا يمكنُ التفكيرُ بأجوبةٍ مُسبقةٍ على أسئلةٍ قد يطرحُها الشَّريكُ الآخر. هذا مرض مُؤذٍ.

تجدرُ الإشارة إلى أنَّ استشارةَ شخصٍ ثالثٍ في هذه المرحلة أمرٌ جيّدٌ وضروريٌ يُساعد على تجنّبِ الأخطاء سواءَ كانت من جهة التصرفات أو من جهة الحُكم على الآخر واتخاذ القرارات؛ كما أنّ طلب الاستنارة من الرّب، وبركتَه في مسيرة التعارف، أمرٌ في غاية الأهميّة، لأنّ الله وحدَهُ، هو الذي يعرفُ مستقبل حياتنا ونحن نتّكل عليه، لذلك، فلتكنْ إشارةُ الصليبِ رفيقةَ الدرب على الدوام، وليكن مؤكَّداً لديكم أن المؤمن الذي يضع رجاءه على الرّب، ويستودعُ حياتَه بين يديه، لا يقلقُه أيّ شيء أبداً، بل سيمضي في مسيرتِه بفرحٍ وشكرانٍ ومحبّةٍ مع الشَّريك، ويقول دوماً: «المجدُ لله على كلِّ شيء»؛ مؤمناً أنَّ الغدَ يدبّره الله بحكمته، وأنَّ الصعوباتِ تُواجَهُ بمعونتِه وعنايتِه الغزيرة للبشر.

ختاماً، أرجو الانتباهَ إلى أنّ الإكثارَ من الأسئلةِ والطلبات التعجيزيّة من الشَّريك وتضخيمَ بعض الأمور الصغيرةِ لا يؤسّسُ لعلاقةٍ ناجحةٍ إطلاقاً؛ وعلى سبيل المثال، أقول إنَّ بعض الأشخاص أحياناً يبحثُ في شجرة عائلة الشَّريك مُتحرِّياً عن وجود أمراض أو مشاكل وغيرها... وهذا الأمرُ بالطبع بعيدٌ عن المنطق، وغير مقبول، لا بل يعدُّ مرضاً. إنَّ التحرّي عن الآخر مقبول عندما يقصد به الاستيضاح لأنَّ التضخيم والتدقيق المرضيّ مُسيئان جداً لأنَّهما سيخلُقان فيما بعد مشاكلَ كبيرةً وجديّة يصعبُ علاجُها في أُطرِ الحياة الزوجيّة.

أسئلة:

هل ترى أنّ زمن التعارف بين المقبلَين على الزواج يستغرق عدداً من السنوات؟

لا يوجد وقتٌ مُحدّد لهذا الأمر، كما أنَّ أسبوعاً واحداً هو مدةٌ غير كافية طبعاً، وإذا تجاوزتْ هذه المرحلةُ خمس أو ستّ سنوات فلا يمكننا اعتبارَها فترةَ تعارف. المهمُّ هو الابتعادُ عن التسرّعِ والاستعجال. قرار الارتباط يتطلّب وقتاً

كافياً، ليس فقط لتتعرَّف أنت إلى الآخر بل لكي يتعرّفَ الآخرُ إليك أيضاً. رأيي الخاص، أنَّ سنواتَ التعارف الطويلة تُنتجُ مشاكلَ كثيرةً وتُتعب الطرفين معاً.

هل يمكننا أن ننصح بالطلاق إذا كانت العلاقة سيّئة؟

هذا الموضوع شخصيٌّ للغاية، ومن الحِكمة ألاّ نوجّهَ أيّةَ نصيحةٍ وألاّ نساعدَ في إطلاق الأحكام تاركين هذا الأمر بين يديّ الشخصِ نفسه لكي يتحمّلَ هو المسؤوليّةَ بكاملها. لا يمكنُ لأيِّ إنسان أن ينصحَ الآخر بالانفصالِ عن شريكه، كما أنَّه يجبُ ألاّ يُمليَ عليه فكرة الزواج. وحتى الأب الروحي، لا يمكنُه أن يقولَ لأحدٍ تزوّج أو لا تتزوّج أو من سيتزوّج، لأنَّ هذا الموضوع خاصٌّ به، لكن من الممكن أن يُعطيَ الأبُ الروحي أو الأهلُ أو الأصدقاءُ رأياً معيناً فقط، لأنَّه لا يمكنُ لأحدٍ أن يُقرّرَ عن الآخر في مواضيع دقيقةٍ كهذه.

أبرزُ الأخطاء الشائعة هو زجُّ الأب الروحي في اتخاذ قراراتٍ كهذه بحجّة الطاعة، لأنَّ هذا الأمر يتعلّقُ بحريّةِ

الشخص وليس بأبوّته الروحيّة. القرارُ شخصيّ بامتيازٍ وليس قرار للأب الروحي. الإنسان وحدَه يتحمّلُ المسؤوليّة في اختيار الزوج. الطلاق في الوقت نفسه أيضاً مسؤوليّةٌ شخصيّة، ولا يمكنُ القولُ إنّ الأب الروحي نصحني به، لأنّ الأبَ الروحي يرشِدُ ويعطي رأيه فقط.

هل يجب أن يكون للزوجين أبٌ روحي مشترك؟

نعم، من الأفضل أن يكونَ للزوجين أبٌ روحيٌّ مشترك، لكي يسلُكا معاً على الموجة نفسها والخطِّ الروحي نفسه. ولكن إن تعذّر ذلك لسبب ما، فلا مانعَ ولا مُسببَ لمشكلة كبيرة. إنَّ اختيارَ الأب الروحي يتعلّق بالحريّة الشخصيّةِ للإنسان، وعلى الزوجين اعتبار كلام الأب الروحي لهما بمثابة تعليم من الله وأنَّ مشورتَهُ مُباركة، وأنَّهما مهما اختارا فسيكونانِ تحت بركة الرّب.

ما هي أكبر صعوبة تَعترِضُ الزواج؟

للأسف، يجهل الناس، في هذه الأيام، أهميّةَ سرّ الزواجِ بسبب الكبرياءِ وحبّ الذّات وحبّ المال المُسيطر على

قلوبهم، والحقيقةُ أنّ ما يتمُّ في إطار الزواج هو عكس هذه الأمور تماماً، لأنَّ الزواجَ تواصلٌ صحيحٌ مع الآخر، والتزامٌ مشتركٌ بالحياة معهُ، وهذا يتطلَّب تواضعاً وتحرّراً من «الأنا» كي يستطيعَ المرءُ أن ينظرَ ويتعامل مع الشَّريك على أنّه أيقونةُ لله.

إنَّ سبب الطلاق، غالباً، هو أنَّ الزوجَين لا يستطيعان التواصلَ مع بعضِهما. هذه هي المشكلةُ الكبرى وجذورها تعودُ إلى طفولةِ الشخص.

يا أحبّة، مَن يختارُ الزواجَ عليه أن يختارَ شريكاً مناسباً. لا تخافوا من هذه الخطوة المباركة، بل اطلبوا المعونةَ الإلهيّة وصلّوا لتجدوا الشخصَ الذي يريحكم في كلِّ الأمور. بالطبع لن تتزوّجوا ملاكاً بل إنساناً. وهذا يعني أنَّ عليه أن يريحَكم من كلِّ النواحي، حتى من الناحيةِ الجسديّة أيضاً. أقول هذا عن الناحيةِ الجسديّة لأنّ الإنسان نفسٌ وجسدٌ وهو بحاجة للارتباط بشخصٍ يريحُه من الناحية الجسديّة ومن الناحية النفسيّة.

بعد خبرةٍ بسيطةٍ في مجال الرعاية، أقولُ بصريح العبارة: لا يكفي أن تكون الفتاة التي سيرتبط بها الشاب، ملتزمةً كنسياً، مهذبةً، تُواظب على الصلوات، تعترفُ وتصوم وفي الوقت نفسه لا يرتاحُ لها جسديّاً ولا يشعرُ بانجذاب نحوها، فإنْ لم يكن هنالك توافقٌ من هذه الناحية، فإنَّه للأسف سيبحث بعد فترة عن فتاةٍ أخرى.

ماذا تقولون عن الطاعة في الحياة الزوجيّة؟

لا حاجةَ للكلام عن الطاعةِ المتبادلة بين الزوجين عندما تسير الأمور على ما يرام، لأنَّ كلَّ واحدٍ منهُما يقوم بما يُريح الآخرَ دون تسلّطٍ وإكراه، أي أنَّ التفاهمَ ووصيّةَ المحبّة هما سيّدا الموقف. فالمحبّةُ تعطينا القدرةَ على إفساحِ المجال للآخر كي يتصرّف بحريّةٍ لأنَّنا نثق به عارفين أنَّه لن يفعل أيَّ شيءٍ يضرُّ بنا إطلاقاً. عندما نقول للآخر: «ليكن كما تُريد وكما تُحبّ»، عندها نتخطّى الخوفَ وتكونُ إرادةُ الآخر مصدرَ فرحٍ وحريّة لنا.

هل تساعد المساكنة في التعرّف على الشَّريك الآخر؟

لا تعطي المساكنةُ الفرصةَ للإنسان كي يكتشفَ الآخر ويعرفَه بشكلٍ كامل. الإنسان عموماً شخصيّةٌ متحرِّرةٌ وتتبدّل مع العمر والعمل والزمان والأحداث الخ... اليوم يتصرّف كَمَلاك وغداً كشرّير، وهو اليوم فوضويّ وغداً هادئ ومتّزِن.

المساكنة، بحجّة التعارف، لا تعطي أيّةَ نتيجةٍ إيجابيّة ولا تُفيد إطلاقاً، خاصّة أنَّه يصعبُ ضبطُ الذّات أمامَ حرب الأهواء، وتعرّضُ الشخصين لتجاربَ وحروبٍ جسديّة لا محالة! لا يتمُّ التعارف الصحيح والمُثمرُ إلاّ بأسلوبٍ راقٍ غير مرتبطٍ بالناحية الجسديّة. من يقول إنَّ الناحية الجسديّة لا تشكِّل في المساكنةِ دوراً مهماً فهو مُخطئٌ ومغشوشٌ و»يتعلّلُ بعلَلِ الخطايا» (مز١٤٠: ٤)، لأنَّ المساكنةَ تُدخلُ الطرفينِ في متاهة لا تُساعدهما البتّة على اتخاذ قرارِ الزواج، ولا على الارتباط، بسبب ما تؤمّنه من رِضى نفسيّ وجسديّ لهما. لذلك على الإنسان أن يتعرّفَ على الآخر عبرَ الطُّرقِ البسيطةِ والجديّة وأن يضعَ دوماً رجاءَه على الله.

ميناء اليقظة في العائلة

يُعتبر موضوع العائلة والزواج اليوم حديث العصر. وإذ تكثرُ التساؤلات في شتّى الأُطر، طُلب منّي أن أتحدث عمّا إذا كان الزواج ميناءَ سلامٍ للعائلة أم مكاناً يؤدي بها إلى الغرق. ولكن اسمحوا لي يا أحبّة، أن أتساءل وإيّاكم، هل الزواج حُطامٌ في ميناء؟ لقد أتاني هذا الفكر الآن وأنا أنتظر أن آخذ دوري في الحديث.

ولكن لماذا هذا السؤال؟

الزواج مسيرةٌ عظيمة. يرتبط فيها الإنسان بآخرَ ويصير شريكاً له في حياته ببركة الله. شريكاً يقبلُه ويحبّه ويتّحد معه طوال حياته ويصادف فيها الأفراح والأتراح، والسلام والاضطراب. لكن للأسف، يُلاحَظ في الآونة الأخيرة

أنَّ مجتمعاتنا تواجه صعوبات تختصّ بالعائلة التي تتدهور وتتفكَّك، وهذا يعني أنَّنا نعيش في أزمة حقيقية[١]، وبالتالي نحن أمام واقع صعب.

هكذا خلقنا الله. هذه هي طبيعة الإنسان المتقلّبة. ولهذا نواجه حالات كهذه. واسمحوا لي أن أقول، إنَّ الانفصال الزوجي لا يحصل بفكرٍ سيءٍ من قبل أحد الطرفيْن، إذ ليس بينهما شرّير. هما لا يُريدان الشرّ للعائلة ولا إلحاق الضَّرر بأولادهما، بل يسعيان كي لا يعيشا هذه الصعوبة والخبرة الأليمة، أعني بها خبرة الطلاق. ولكن، في الكثير من الأوقات يصل الزوجان إلى الطلاق، إذ يُحتَّمُ عليهما الاختيار ما بين نارين؛ وعندها يفضّلان الأقل ضرراً بنظرهما فيختارا الطلاق.

إنَّ مراقبة مسيرة العائلة ضمن أُطر العوامل والتحدّيات

١ في قبرص اليوم هنالك حوالي ٥٦٠٠ زواج كنسي يقابله حوالي ١٤٠٠ حالة طلاق. أما بالنسبة للزواج المدني فالأرقام أكبر بكثير، في مدينة ليماسول، على سبيل المثال هنالك حوالي ٨٥٠ إلى ٩٠٠ زواج أمّا حالات الطلاق فتصل إلى ٤٠٠ حالة.

التي تواجهها اليوم، تجعلنا نشعر أنَّ الخطر الأكبر هو الميناء وليس البحر الهائج. فعندما تكون في عرض البحر، فأنت في حركةٍ دائمة وانتباه وتيقظ؛ أمّا عندما تركن في الميناء، فأنت تعتقدُ أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام. وهنا يكمنُ الخوف من أن يحدث الغرق دون أن تتوقع. ولهذا كان آباء الكنيسة يخافون ويحذرون من «الموانئ الهادئة» الغدّارة في بعض الأحيان؛ كما يقول القدّيس يوحنا السلَّمي: «انتبهوا حتّى لا تغرقوا في الميناء لأنَّ الغرق صعبٌ وفجائيّ ولا تخلصوا منه بسهولة. هناك الكلُّ ينام ولا يمكن أن ينتبهوا للغرق الذي يحدث».

الكثير من العائلات حولَنا بدأت حياتها بشكلٍ رائع. وبعد عشرات السنين، تزعزعت أُسس العلاقةِ فيها بعد أن أكملوا بناءَ منزلهم الخاص وربّوا الأولاد واقتنوا أملاكاً. لماذا يحصل هذا؟

بعد الاطلاع على الأمور، يبدو أنَّ الإنسان في الزواج، كما في الحياة الروحيّة، يواجه عدواً خطيراً جداً يسمّى

الإهمال، حيث ينسى أنَّ الزواجَ زهرةٌ نزرعها في الحديقة، وهي تحتاجُ دوماً إلى العناية والريِّ بشكلٍ منتظم كي لا تَيبَس، ولهذا على الإنسان أن يسقيها كي تبقى نضرةً ونابضةً بالحياة.

ما تواجهُهُ العائلة بشكلٍ عام، والزوجَين بوجهٍ خاص، أنَّ عليهما أن يبقيا مجاهديَن يقظَين على الدوام، حريصين على التضحية المستمرة، ليتخطيا خطورة الموانئ وهدوئها.

الزوجان مُلزمان بتسليم الذّاتِ بالكليّة أحدهما للآخر، وألاّ يتلهيا بأمور والتزامات تافهة. كما أنَّهما ملزَمان بألاّ يكون الأولاد سبباً في التقصير فيما يخصّ كلّ مقومات الحياة الزوجيّة، لأنَّ الأولاد في بعض الأحيان يدمّرون علاقة أهلهم الزوجيّة. وقد يصل التطرّف في محبتهم وحضورهم المميز في العائلة لأن ينسى الزوج مثلاً أنَّ الأولادَ هم ثمرةُ أمٍّ هي زوجته أصلاً. لهذا عليه بالحريّ أن يهتم بها أولاً، وبعدها بأولاده، كي يكون صادقاً وأميناً لعهده. طبعاً لا يمكن لأمٍّ، مهما كان الثمن، أن تقبل بهذه المقارنة البتّة؛

فأولادها هم فوق كل اعتبار وقبل أي أحدٍ، حتى ذاتها، فهذا ينبعُ من قلبها النابض بمشاعر الأمومة. ولكن على الرغم من الشّعور السامي بالأمومةِ، تبقى الطبيعة الأنثوية خفيّةً ومدفونةً في أعماقِ الأمّ، وهذه الطبيعةُ الأنثويّة تتطلّب على الدوامِ حاجاتٍ عديدةً من الزوج، أبرزها: الأمان، والتّفهم، والاهتمام، والمحبّة؛ وهي بدون هذا لا تستطيع أن تتابع، بشكل صحيح وثابت، جهادَها في تربية الأولاد وعنايتها المميَّزة بمنزلها.

يستغرب العديد من الأشخاص، إذ يرَون أساسات منازلهم تتدمَّر من دون سابق إنذار، كما لو أنَّهم نيام؛ وفجأة يستيقظون على وهج نار تلتهمُ منزلَهم. ويتساءلون لماذا يحدث هذا الأمر؟ ولما لم يتمّ الانتباهُ إليه؟

ما يحصل للعائلة من دمار، ما هو إلاّ نتيجة لشرّ متجذّر، بدأ بالتمدّد منذ زمن طويل، حيثُ لم ينتبهِ الإنسانُ إلاّ إلى النتائج الحاصلة من جرّائه، فقد ظنّ أنَّ كلَّ شيءٍ في الميناء سيكون على ما يرام، لكن للأسف،

تغلغلت العديدُ من الميكروبات المخفيّة وصارت تفتكُ بهذه العلاقة، وتمنعه من الانتباه إلى الأخطار التي تُهدِّد هذه الشّركة العائليّة؛ فاعتقد الإنسانُ أنَّ كلَّ ما يفعله كان كافياً لكي يُمسكَ بزمام الأمور، ويُبقيَ هذه العلاقة على قيد الحياة.

يتحوّل «الميناء» إلى خطر، في كثير من الأحيان، ليس فقط فيما يخص العلاقة بين الزوجين وحسب ولكن بين الأهل والأولاد أيضاً. إذ يتفاجأ الأهل أنَّ أولادهم يعانون من مشاكل كبيرة نفسية، وروحيّة، واجتماعيّة، وشخصيّة، وقد تصل إلى اقتراف الخطايا الجسيمة. ويستغرب الأهلُ السببَ بعد أن كانوا على قناعةٍ بأنَّ «ابني بيجنِّن»! ولكن لماذا فعل هذا؟

تكمن المشكلةُ في أنَّ الأهل لم ينتبهوا إلى مسيرة أولادهم. والأسوأ من هذا، هو كبرياء الأهل، واعتدادهم بأنفسهم، واعتقادهم بأنَّه لا مجال لحدوث هذا النوع من المشاكل في عائلتهم كما في العائلات الأخرى. هذا هو

الخطأ! فقد غلَبَنا النومُ والكسلُ في الميناء، ولم نقلقِ البتّة، وما دقّقنا أبداً بتصرفاتنا وأفعالنا، بل كنّا نقول دوماً: «يا نفسي لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين عديدة فاستريحي» (لو١٢: ١٩).

أحبائي، تكلَّم الشيخ القدّيس باييسيوس كثيراً عن القلق المبارك. وليس المقصود به هنا القلق المدمِّر؛ بل هو قلقٌ مباركٌ، هادئٌ، مفعمٌ برجاء الرّب وبالفرح الداخلي. يقول القدّيسون أنَّنا بشرٌ وأعمالنا مختومة بالكمال البشري؛ لهذا كانت معرفتنا محدودة، ونحن لا نعرف كلَّ شيء. نحن نعتقد أنَّنا نقوم بأمرٍ جيّد ولكن هل هو فعلاً جيّد؟ لا نعرف! القلق الحسن يدفعنا لسماع الإنسان الآخر، والتعرّف عليه، لاكتشاف ما يجري حولنا.

عندما لا يقلق الإنسان مِمَّا يحصل حوله، بشكل إيجابيّ، يكون خاضعاً لكبريائه، فهو يعتقد أنَّه يسيطر على كلِّ شيء، ويراقب كلَّ شيء، فهو لا يُتعب نفسه بأن يسأل أحداً، وحتى أن يبحث عمّا إذا كان ما يقوم

به صحيحاً. في الحياة الروحية، وبحسب الآباء هذا مرضُ «بداية الضلال»، وأبرز عوارضه أن تؤمن أنَّ كلَّ شيء على ما يُرام، وأنَّك لست مضطرّاً لمراقبة أعمالك. القدّيس بولس الرسول، على الرغم من وصوله إلى قمة الحياة في المسيح، إلى درجة التألُّه بالنّعمة، وهو الذي تسلَّم الإيمان والبشارة الحسنة من الرّب يسوع نفسه، لم يتكل على معرفته، بل ذهب إلى أورشليم وسأل الرسول بطرس (إنظر أع ٢٠ و٢١).

يروي كتاب الآباء الشيوخ أنّ أحد آباء البرية أراد أن يسأل الله بخصوص موضوع معين، وكانت لديه نعمةٌ أن يُكلِّم الله، فقد كان يصلّي والله يجيبه عن أسئلته. وبالفعل، سأل الله وبدأ بالصلاة والصوم منتظراً الجواب. مرّت الأيام والأسابيع ولم يُجبهُ الله بشيء. وعندما تعب سأل نفسه: لماذا لا يُجيبني الله؟ ماذا أفعل؟ ماذا يحدث؟ وعندها قرّر أن يذهب إلى جاره الناسك ليسألَهُ رأيَهُ، فخرج من قلايته وأقفل بابه. وفي اللحظة التي وضع فيها المفتاح في جيبه، وهمَّ بالتوجُّه نحو جاره أتاه الجواب فوراً من الله. فسأل الله:

لماذا جعلتني أنتظرُ كلّ هذا الوقت ولم تُجبني؟

فأجابهُ الله: لأنَّك الآن تواضعت، وأبديت استعداداً لسؤال شخصٍ آخر، ولأنَّك تقرُّ بأنَّك لا تعرف كلَّ شيء. فلا تحسب نفسك في ميناء وتظنَّ أنكَ لستَ في خطر لمجرّد أنَّك تعيش في النسك والرؤية الإلهيّة المغبوطة.

هكذا نحن يا أخوة في بيوتنا وعائلاتنا، علينا أن نضعَ القلق الحسن نُصب أعيُنِنا، وألاّ نتَّخذ القرارات السريعة في الأمور المهمّة. علينا أن نشاور الآخرين. ولكن من نسأل؟

طبعاً لا نسأل أيّاً كان من الناس ولو كنّا نسلك بشكل جيّد، بل نسأل شريكنا في العائلة وأولادنا. يقول المثل الفرنسي: «إنْ كنت تريدُ أن تعرف إذا كنت قدّيساً، اسألْ خادمك».

يتحقَّق الحوار بين الأهل والأولاد، وبين الزوجين، عبر الانتباه إلى التصرفات وردّات الفعل المُلفتة للنظر. لذا علينا أن نكون مستعدين لسماع ما يُقال لنا بواسطة

هذه التصرفات، أو حتى بواسطة تعبير بسيط ربَّما يظهر على الوجه. هذا فنٌّ وعلينا تعلُّمَه. من يُصغي لرأي الآخر ويتحلّى بالصَّمت ويعمل بحكمة المشاورة؟

للأسف، تبرز هذه المشكلة الكبيرة في عائلاتنا وفي علاقاتنا الزوجيّة، لأنَّنا لا نعرف أو بالأحرى لا نُريد أن نسمع الآخرين مُعتقدين أنَّه لا حاجةَ لنا بذلك. الإنسان يعيش في الكبرياء والهذيان ولهذا لا يستطيع سماع أحد. هو في الهذيان، في ميناء وهميّ، من نسج الخيال بأغلب الحالات. نعيش وسط المشاكل، ولكن يسيطر علينا سُبات عميق، وعندما نستيقظ يكون قد فات الأوان. نقع في أهواء مدمرةٍ من قساوة قلوبنا، وعدم تفهُّم الآخر، واللاإنسانيّة، واليأس. ونختار الحلول المتطرّفة التي هي أسوء ما يمكن أن يكون. وتضيع صفات الإنسان المتواضع من هدوء واستقرار روحي. عندها، كما يقول القدّيس باييسيوس، تبدأ أسئلة الـ «لماذا؟». لماذا هذا ولماذا ذاك؟ وهكذا يدخل في دوّامة من الأسئلة تقودُه إلى الإرباك والضياع.

في النهاية، ووسط هذا الدور المهمّ الذي علينا أن نلعبه كأهل وكعائلة، علينا أن نبقى دوماً في يقظة تامّة، وألاّ نقول أنَّ كلَّ شيء على ما يرام. سنفرح، طبعاً، بأوقات السعادة والنجاح والهدوء وكلّ الصالحات التي نجدها في العائلة ومع الزوج. وبالوقت عينه علينا أن نسأل أنفسنا عن كلِّ ما يحدث حولنا. بهذه الطريقة، نكون دائماً في يقظة روحية واستعداد لمواجهة المخاطر التي تَلحقُ بنا.

تأتي مشاكل العائلة، لأنَّنا نخاف أن نُطلع الآخر على ما ينتابُنا، لأنَّنا لا نسمع بمحبَّةٍ وتواضع. علينا قبل كلِّ شيء، أن نضع على الرّب كلَّ رجائنا لأنَّه وحده يصون عائلاتنا، ويحمي أولادنا، ويبارك حياتنا الزوجيّة، ويدفع كلَّ شرّ واضطراب وشرذمة.

العائلة بركة أم صليب

عنوانُ حديثِنا هو «العائلة بركة أم صليب؟»، ولكن من الأفضل أن يكونَ العنوان: «العائلةُ بركةٌ وصليب»، لأنَّ الصليبَ بركةٌ والبركةُ تُعطى بختم الصليب. تقليد الكنيسة وخبرتُها على مرّ العصور لا يَفصُلان إطلاقاً بين البركةِ والصليب؛ إذ لم يكنْ بركةٌ دونَ الصليب، ولم يكن هنالك صليبٌ دونَ أن تَصدرَ عنه البركة. المقصودُ بالصليبِ هنا، وبكلِّ تأكيدٍ، هو الصعوباتُ والتجاربُ التي تواجه الشريكَين في حياتِهما الزوجيّة. وتكْمن مَصْلوبيّةُ الزواج في أنَّه المكانُ الذي يتَّحد فيه الإنسانُ مع شريكه إلى درجة الذوبانِ والتماهي.

إنَّنا نمرُّ بفترة صعبة، وخصوصاً فيما يتعلّق بالزواج حيث

تزدادُ حالاتُ الطلاقِ بالمقارنةِ مع حالاتِ الزيجات. وما يلفتُ النظرَ أيضاً هو أنَّ غالبيّةَ الذين يلجؤون إلى الطلاق هم من أولاد الكنيسة، لذا صرنا نتساءَلْ في المحاكم الروحيّة عن سببِ وصول هؤلاء الأشخاص إلى هذا القرار؛ وقد تبيّن لنا سببان أساسيّان لهذه الظاهرة، وهما:

السَّبب الأوّل: هو نتيجةٌ لأسسِ التربية العائليّة، إذ نُعلِّم أولادَنا أنَّ الزواجَ هو فقط، لقضاء أوقاتٍ من الفرح والسعادة والحبّ مع الزوجة وإنجاب الأولاد؛ وبشكلٍ أوّليّ يمكنُنا أن نقول إنَّ هذه الفكرةَ صحيحةٌ، فالإنسانُ لا يتزوج كي يعيش في التعاسة ويبقى بلا أولاد. لكن، على الرغم من هذا، تبقى هذه الحقيقةُ السببَ الأساسيَّ لمرور الزواج بمَطبّاتٍ كثيرة، مثل الطائرة التي تمرّ بمطباتٍ هوائيّة. وفي هذه الحالةِ نُصبحُ غيرَ قادرين على معرفةِ وضْع الزواج ونتائجِه، لأنَّ الزواج يستندُ منذ بدايته على هذا الأساس المعوجِّ.

إلاَّ أنَّ نظرةً أخرى وفكراً آخرَ يظهران مختلفين بوضوحٍ في خدمة سرِّ الزواج، أو خدمةِ «التتويج» (والمقصود هنا

خدمة الإكليل)؛ إذ يتَّضحُ أنّ هذين المتقدّمَين إلى شَرِكة الزواج يعْبُران من الزواج الأرضي إلى زواج روحي، بواسطة الاتّحاد بيسوعَ العريس السماوي. وبالتالي لا يمكننا، نحنُ أولادَ الكنيسة، أن نقول إنّ الإنجابَ هو هدفُ الزواج. فلو كان الإنجابُ هو الهدف، عندها يكون الزوجان اللّذان لا يستطيعان أن يُنجبا غيرَ متمِّمَين ولا مُحَقِّقَين لهدف الزواج؛ وعلى الكنيسة أن تضع قانوناً يسمح ببركةِ الطلاق. لا يُعتبرُ هذا الأمر سبباً وجيهاً للطلاق.

أمّا فيما يخصُّ السعادةَ والفرح، فكلُّنا يعرفُ أنَّ الزوجَين يواجهان، في مسيرة الزواج، العديدَ من الأحزان والتجارب والصعوبات. وإن كان الزواجُ لأسبابٍ دُنيويّة أخرى، فهذا خطأٌ، إذ من المحتَمل أن تَنتُج عنه مشاكلٌ جمَّة في حال عدم تحقيق الهدف الدنيويّ المنشود. ففي كثير من الأحيان لا تجري رياحُ الحياة كما نشتهي ونرى.

إذاً، هدفُ الزواج، بحسَب إيمان الكنيسة وتعاليم الآباء القدّيسين، هو أن يتَّحدَ الزوجان بالمسيح الختن

بواسطة سرِّ الزواج، الذي هو الجسرُ الحقيقيّ للوصول إلى الهدف. وفي هذه الحالة فقط يبدأ زواجُهما بشكلٍ صحيحٍ وثابت، ويستطيعان معاً، أن يُواجِها المشاكلَ والصعوباتِ روحياً، ويعمِّدانها بواسطة علاقتِهما مع المسيح، ويضعا هذه المشاكل والصعوبات كلَّها على صليب المسيح لكي تتحوّلَ من عذابٍ إلى بركةٍ، ومن تعبٍ إلى راحةٍ، ومن مرارةٍ إلى حلاوةٍ، ومن ظلمةٍ إلى نورٍ.

قد تستغربون ما سأقولُه الآن! إن أفضلَ كتاب للمتزوجين هو كتابُ الآباءِ الشيوخ. وقد يَعتبرُ الكثيرون أنَّه، من الطبيعي، أن أقول لكم هذا لأنّي راهبٌ آثوسيٌّ متطرّفٌ. ومن الطبيعي أيضاً أن أنصحَ المتزوجين بمطالعة هذا النوع من الكتب؛ ولكنَّني لا أقول لكم هذا لأنِّي أريد أن يصبحَ الناسُ رهباناً، وإنَّما إذا غُصنا في عمقِ روحانيّة آباء البريّة، وليس في شكلها النُسكيِّ الخارجيِّ، سنجدُ أنَّها تقودُ كلَّ مؤمنٍ إلى المسيح من خلال عيشِ الصليب والقيامة يومياً في حياته.

يُروى أنَّ شاباً زار أحدَ الآباء سائلاً إيّاه عن ديرٍ مناسبٍ يذهبُ إليه ليصبحَ راهباً فيه، ويجدَ فيه مكانَ توبتِه وخلاصَ نفسه. فأجابه الشيخ: «اسمع يا بنيَّ؛ حيث هناك تعبٌ، وجهدٌ، ووحدةٌ، وحيث لا يوجد أناسٌ؛ هناك اذهبْ». أما لو سُئلنا في هذه الأيام، لكان الجواب: «اختر ديراً مريحاً، من حيث المناخُ، والمكانُ، والأخويَّةُ، والرئيس، وحيث يُؤمَّن لك ثيابٌ مرتبةٌ، وطعامٌ جيد، ...».

يجب أن تبدأ الحياة الزوجية دوماً من نقطة انطلاقٍ صحيحة. فكما أنَّ الحياةَ في المسيح تبتدئ بالمعمودية، حيث نحن مطالبينَ بالموتِ والقيامة مع يسوع المسيح، الذي أخلى ذاتَه واتَّحد بنا؛ هكذا أيضاً في الزواج، على الإنسانِ أن يُخْلِيَ ذاته ويتَّحد بالمسيح وأن يكون جاهزاً لكلِّ حزنٍ وشدَّة، كما أنَّهُ، على الإنسان أن يتّخذ شريكَ حياتِه بنعمةِ الرب يسوع، وأن يَعِدَ أمام الربِّ أنَّ هذا الشَّريكَ سيكون خاصَّتَهُ حتى نهاية عمره، وعندها، فقط، يَثبُتُ في زواجِه على المسيح الذي هو وحدهُ الصخرة والأساس.

تأملوا يا أحبائي كم جميلةٌ هي الطروباريات التي تُرتلها الكنيسة أثناء التطوافِ في خدمة سرِّ الزواج:

«أيُّها الشّهداءُ القدّيسون الذين جاهدْتُم حسناً وتكلَّلتم، تشفَّعوا إلى الرب، أن يرحم نفوسنا».

«المجد لك أيُّها المسيح الإله فخرُ الرّسلِ وبهجةُ الشّهداء الذين كرازَتُهم بالثالوث المتساوي في الجوهر».

«يا إشعياء إطرب متهلِّلاً لأنَّ البتول قد حَملَت في أحشائِها وولدت إبناً عمّانوئيل، إلهاً وإنساناً معاً الذي يُسمّى المشرق، لذلك نعظِّمُه ونطوّب البتول».

تُظهر هذه التراتيل أن الزواجَ بركةٌ وفرحٌ بحضورِ المسيح، وتُظهرُ أيضاً أنَّ مسيرةَ الزواجِ بالوقت عينِه ستسْلك درْبَ الاستشهاد الضروري لكلِّ من يريدُ أن يتبعَ المسيح. ويمكنُنا القول بأنَّ الإنسان الذي يُمضي أيام حياته متنعماً بالراحة سوف يَخسرُ حيثما وُجِدَ وأيّما طريقٍ اختار.

إنَّ المتزوجين يعرفون تماماً أنَّ الزواجَ ميدانُ تجارب، ومكانٌ للتضحية اليوميّة وللتخلّي عن المشيئَة الذاتيَّة. وهذا الأمرُ هو بغاية الجديّة، فقد يَشعرُ الإنسانُ أنّهُ لا يريد التخلّي عن مشيئتِه من أجل ابنِه أو زوجتِه ولكنَّه قد يفعلُ ذلك من باب الالتزام الزوجي. بهذا الفكر، فكرِ الصليب، يصبحُ الزواجُ بركةً لأنَّه «بالصليبِ قد أتى الفرحُ والبركةُ إلى كلِّ العالم».

السَّبب الثاني لظاهرة الطلاق، فهو أنَّ العديدَ من الناسِ يتزوّجون وفي داخلِهم فكرٌ سيّءٌ وشرّيرٌ، أو أنَّهم قد خطَّطوا سلفاً للطلاق يوماً ما، كما أنَّ البعضَ يعتقد مُسبَقاً أنَّ مسيرةَ حياتِه الزوجيّة ستكون سيئةً وأنَّهُ لن يتَّفقَ البتّة مع شريكهِ بعد الزواج. إنَّ هذا النوعَ من الأفكار هو فكرٌ شرّيرٌ مُدمِّرٌ، وهو هروبٌ من الصليب ورفضٌ للبركة.

تأتي الصعوبة في حلِّ هذه المشاكل من ضُعف الإنسان وعدم قُدرتِه على التحاورِ والتعاطي مع الآخر، ولا أُخفي عليكم أنّي قد لاحظْتُ جذور هذه المشاكل عند الطلاّب

الثانويين في المدارس التي أزورُها. إذ في اللقاءات يقفُ أحدُهم ويطرحُ سؤالاً، وقد يكونُ استفزازياً، والغريبُ أنَّه بعد ذلك يجلس ولا يهمُّه الجوابُ، ويتحدّثُ مع من بجانبه. تقول له: أتريدُ أن تسمعَ الجواب؟ حتى هذا لا يسمعُه!

من هذا المنطلق، أريد أن أشدِّدَ على أهميّةِ تعلُّم فنّ النقاش والحوار منذ طفولة الإنسان، لأنَّه إذا لم يتعلَّمْ هذا الفنّ منذ صباهُ، لن يستمع لا لزوجته ولا لأولاده، ولن يستمعَ لا لربِّ عملِه ولا لزملائه في العمل، ولا لجيرانه أيضاً؛ وبذلك سيصبحُ الإنسان منفرداً ومنعزلًا وغيرَ قادرٍ على فهم أيّ شيءٍ البتّة.

للأسف، لا يعرف بعضُ الناس أن يتواصلوا مع الآخرين. معظمُهم يعرفون اليومَ مواقعَ التواصلِ الاجتماعي، إلاّ أنَّهم يجهلون فنّ التواصُل العائليّ والاجتماعي. لهذا يُعلِّم الآباء القدّيسون أهميّةَ فضيلةِ الصمتِ التي بواسطتِها نستطيعُ التواصل مع الآخر، والتي بدونِها لا يمكِنُنا أن نتواصلَ مع الله، أو نسمع تعاليمَه.

إذاً من المهمّ جداً أن نتعلَّم فنّ سماعِ الآخرين الذي يُعتَبر العلاج الأوّل لهذه المشاكل.

التقيتُ مرّة بمعلِّمة بريطانيّة، ذات أصولٍ قبرصيَّة، فسألتُها ماذا تُعلِّم؟ فأجابت أنها معلِّمة تواصلٍ. فسألتها ثانيةً: «ماذا تفعلين؟ ماذا تعلِّمين؟». فأجابت: «أُعلِّم الناس أن يسمعوا». فقلتُ لها مستغرِباً: «هل هم صُمٌّ؟». فقالت لي: «طبعاً لا». عندها تعجَّبتُ قائلاً: «لا أفهم ماذا تقولين! ما الذي تعلّمينه إذاً؟». فقالت: «أُعلِّم الناسَ كيف يصغون للآخر، وكيف يقفون أمامَه، وكيف ينظرون إليه. أُعلِّمهم أيضاً كيف يسمعون ما يريدُ الآخرُ أن يقولَه بالضّبط، وليس ما يريدون هم أن يسمعوه من الآخر، وذلك كي يستطيعوا أن يُجيبوا بطريقةٍ صحيحة».

تعلّمتُ، شخصياً، من هذه الخبرة المتواضعة، أنَّ الأب الروحي الذي يعرفُ أن يسمع يُريحُ الآخرين كثيراً؛ وأما من يعرفُ أن يتكلَّم ولا يسمع، فهذا يهجرُه الناس. لقد اختبرتُ هذا الأمرَ مرّاتٍ كثيرةً!

أقول كلَّ هذا لأؤَكِّدَ لكم أنَّه، في الزواج، يتجلّى فنُّ التواصل وحياةُ الشركة بامتياز، ولكن للأسف، نحن الشرقيين، لا نتعلَّمُ هذا الفنَّ ولا يوجد من يعلِّمُنا إيّاه، يُعلِّمونا أن نتكلَّم فقط! إنَّ فنَّ الإنصات أهمُّ من فنّ الكلام، والرب يسوع يقول «من له أذنان للسمْع فليسمَع» (مت١١: ١٥). ولكي تسمع، عليك أن تصمُتَ، ولكي تصمتَ عليك أن تُغلق ذهْنَك وتسمع ما يقوله الآخر بالتحديد. بهذه الطريقة فقط تُعالجُ الكثير من المشاكل.

إنَّ نقصَ التواصل يؤدّي إلى خلق الكثير من المشاكل عند الرجال والنساء على حدٍّ سواء. المرأة، بحُكم طبيعتها الأنثويّة، تشعر بالإهمال ونقْصِ العاطفة أكثر من الرجل، لذا تُصبح هذه الطبيعة، وهذا الميلُ الأنثوي، أعداءَ المرأة بامتياز. هما يولّدان لديها الحاجةَ لأن تتكلَّم مع أحدٍ، وأن تبحث عمَّن يسمعُها؛ فإذا لم تجِدْ، تبدأُ المشاكل.

الزواجُ جميلٌ ورائع. إنَّهُ صليبٌ وقيامةٌ في الوقت عينه. في طريق الزواج يحملُ الإنسانُ صليبَه، ويعرف أنَّه مع كلِّ

المباهج الموجودة في الحياة الزوجيّة والعائليّة يسيرُ في طريق الاستشهاد الذي يهدفُ إلى بلوغ الفرح الأهمّ، الذي هو الزواج الأبديّ مع العريس السماويِّ يسوع؛ وبدون هذا الهدف يصبحُ الزواج حدثًا عالمياً اجتماعياً لا غير.

طريقةُ العلاج الثانية تكمُنُ في أن «يَصلُبَ» الإنسان ذهنَه، ولسانَه، ومشيئَتَه، وقلبَه، لكي يُفرِغَ ذاته ويمتلئ من الشَّريكِ الآخر. بهذه الطريقةِ فقط يمكنُه أن يتقبّل الآخرَ كما هو، متَّخذا المسيحَ مثالاً له؛ فالمسيح لم يخلّصْنا بالكلامِ والنظرياتِ الواهنَة، بل تجسَّدَ من أجلنا وصار إنساناً مثْلنا وشابَهَنا في كلِّ شيءٍ، ما عدا الخطيئة. أعطانا ذاتَه وسَكَنَ فيما بيننا. بهذه الطريقةِ أصبحَ بإمكاننا أن نحبَّه وأن نشعر به لأنَّنا عرفناه عن قُرب.

يذكرُ كتاب الآباءِ الشيوخ أنَّه إذا كنتَ تعيشُ في مكانٍ ما، ولا تقومُ بالاهتمامِ بواجباتِك فيه فإنَّك ستُطرد منهُ، والراهبُ الذي لا يقومُ بإتمام واجباتِهِ وأعماله الرهبانيّة، ستنقلبُ حياتُه في الدير، بعد وقت قصير، إلى جحيمٍ

حقيقيٍّ بدل أن تكون فردوساً عذْباً وجميلاً. وكذلك إن كنتَ إكليريكيًّا ولا تقومُ بإتمامِ واجباتك الكهنوتيَّة بشكلٍ صحيح، فإنّ نعمة الكهنوت التي كانت لكَ أجملَ عطيَّةٍ في الحياة وأعظمَ نعمةٍ، ستصبح ثِقلاً وهَمّاً.

هكذا أيضاً، إن لم يُحقِّق الزواجُ الشروطَ الصحيحة، وإن لم يتعاملْ معه المرء بمبدأ الصَّلب والقيامة، فإنَّه سيتحوَّلُ من حُلمٍ جميلٍ في حياة الإنسان إلى كابوسٍ مُخيف، وستبدأ المشاكل ويشعر الإنسان بالضياع. عندها يكتشفُ الإنسان السَّببَ مُدرِكاً أنَّه بنى زواجهُ على أساسٍ معوَجٍّ أوصلَهُ إلى هذه المشاكل كلِّها، والتي من أبرَزها عدمُ القدرة على عيشِ فنِّ التواصُل الذي يُشكِّل الداعمَ الأساسيَّ للحياةِ الزوجيّة المثاليّة.

التناغم العائلي

العائلةُ هي أساسُ المجتمع، بها تتعلَّق حياةُ الوطن بشكل عام وحياةُ الكنيسة بشكل خاصّ. تُقدِّم العائلة أولادَها للعالم والمجتمع، بعد أن يتلقّوا التربيةَ الصحيحة في كَنفها، وينالوا من خلالها كلَّ ما هم بحاجة إليه على الصعيد المادّي والمعنوي. في حضن العائلة، يتعلَّم الأولادُ مبادئ التأسيس الناجح للعائلة المتناغمة، كي يُكْملوا بدورهم مسيرةَ من سبقهم.

عندما نسمع عبارة «العائلة المتناغمة»، يتبادرُ إلى ذهننا أمران:

أولاً: الموسيقى، حيث يولِّد تناغم اللّحنِ والأداءُ والصوتُ والكلام جماليّةً تبعث الراحة في نفس الإنسان.

ثانياً: الإنسان المخلوقُ على صورة الله نفسه، لأنَّ الله هو التناغمُ المُطلقُ والكامل، وهذا يَظهر في الخليقة المحيطة بنا، وخاصة في طريقة خلْق الإنسان نفساً وجسداً. كما أنَّ صحّة الإنسان الجسديّة تستندُ على تناغمِ كلِّ الأعضاء وتوازن العناصر اللّازمة لاستمرارها، هكذا أيضاً تتطلّب النفس تناغماً وتوازناً، يجتمعان في الجوِّ النفسي الروحي المعقّد للإنسان.

يعلِّم الآباءُ القدّيسون أهميّة التناغم في الحياة الروحيّة عند الإنسان، لأنَّ الإفراطَ من جهة والنقصَ من جهة أخرى يؤدِّيان إلى مشاكل جَمّة. وتُعتبر فضيلةُ التميّيز أُمَّ الفضائل، كونَها تُحدِّد هذا والتناغم في كلِّ العناصر اللازمة لحياة روحيّة سليمة وصحيحة.

كان أجدادنا يقولون عند زواج أحدهم: «إنَّه يتناغم»[١]، وهذا القول ليس من باب الصدفة. فالزواج هو هذا التناغم بين الرجل والمرأة. وبعد الزواج لا يبقى

١ Αρμάζεται

الرجلُ والمرأة منفصلين، بل يُصبحان إنساناً جديداً واحداً هو الرجلُ – المرأة المُتَّحدان في سرّ الزواج، بنعمة الرب يسوع المسيح وحضوره. وحيثُ يُبارَك هذا التناغم ويُعبَّر عنه حسيّاً في الخدمة عندما يربط الكاهنُ يديّ الزوجَين ببعضهما مُبارِكاً هذا الاتِّحاد الأوّل، وهذه الشَّرِكَة مع الآخر. هذه البركة هي رمزٌ لبركة الارتباط الأبديّ والتجانسِ بين الزوجين الذي سيستمرّ طيلة أيّامِ حياتهما.

لقد خلق الله الرجلَ والمرأةَ ليعيشا معاً، وقد عرف الرجلُ للتوّ أنَّ المرأةَ جزءٌ منه عندما رآها، وقال: «هذه الآن عظمٌ من عظامي ولحمٌ من لحمي. هذه تدعى امرأةً لأنّها من امرءٍ أُخِذت» (تك ٢: ٢٣). هكذا يفْهَمُ الرجلُ والمرأة أنَّهما في وحدةِ خلقٍ جسديّة تتطلَّب تناغماً مميّزاً كي تعمل بتوازنٍ وكأنَّها مقطوعةٌ موسيقيّة، لا نشاز فيها، وتحفة في الوجود وفي حياة هذين الشخصين، والحقيقةُ أنَّ شركة الزواج هذه تحقّق الهدفَ المنشود لحياة فُضلى لكلٍّ من الزوجين.

ولكن، كيف يحصُل كلُّ هذا؟ وهل هو مُستطاع؟

بالطّبع، هذا التناغم ممكنٌ لأنَّ الإنسانَ مخلوقٌ كي يتواجَدَ برفقة شريكٍ له، هكذا أبدعه اللهُ منذ الخلْق. يقول القدّيس يوحنا الذهبيّ الفم إنَّ الله وضَع هذا الأمر في طبيعة الإنسان، وزرعَ الميلَ الطبيعي للرجل نحو المرأة وللمرأة نحو الرجل، لكي يتناغمَ هذان المخلوقان ويتَّحدا ويعيشا معاً ويتمِّما هدفَ وجودهما في العالم باتحادِهما الكامل بيسوعَ المسيح العريس السماوي، وليتناغما لاحقاً مع أولادِهما ومحيطهما ومكّونات مجتمعهما.

التناغم في العائلة لا يتحقّقُ إلاّ عندما يعمل الإنسانُ تماماً كما خرج من يدَي الله، لأنَّ الرجل والمرأة ليسا متشابهين، بل إنَّ كلَّ واحدٍ منهما هو عالمٌ بيولوجيّ نفسيّ كامل بحدّ ذاته، وهما مدعوّان أن يتعايشا ويتّحدا بالنفس والجسد كسيمفونية رائعة تتناغم فيها مئات الآلات الموسيقيّة.

من الضروريّ أن نعرف أنَّ التناغمَ الحقيقيّ في الزواج لا يعني الاندهاشَ أو الإعجاب المتبادَل، ولا يعني أن تختفي الخصوصيّاتُ ويخضعُ الواحد للآخر ويخاف منه، بل أن

يعمل هذان الشخصان بشكل صحيح على إظهارِ قوّة المحبّة، التي هي الحِرفةُ الرئيسيّة للإنسان التي تميّزُه عن باقي المخلوقات كونَه على صورة الله الآب.

ينتقلُ الإنسان في مسيرته الشِفائيّة داخلَ المشفى الروحي، أي الكنيسة، من فرد[٢] إلى شخص[٣]. الفرد لا يتعايشُ ولا يتشارك بشيء مع أحدٍ، ولا يقدّم ذاتَه لأحد، ولا يُعطي قلبَه لأحد بل هو متقوقعٌ على ذاته؛ أمّا الشخص فهو الذي يرى وجهَ يسوع في الآخر ويشتركُ معه ويقدّم له ذاتَه بواسطةِ المحبّة.

لكلِّ هذا يكون توصيفُ المحبّةِ صعباً جداً لأنَّها الصفة التي تميّزُ الله نفسَه. الكتاب المقدّس يقول بشكل واضح، بفم الإنجيلي يوحنا، إنّ: «الله محبّة» (١يو٤: ٨)، أي أنَّ المحبّةَ هي أعظمُ صفة لله في كلِّ الكتاب المقدس. وإذا كان «الله محبّةً» فالإنسان، الذي على صورته، هو أيضاً محبّةٌ بنعمةِ الله، وهذا يعني أنَّه يعيش بشكل صحيح عندما

٢ Άτομα (Atoma)
٣ Πρόσωπο (Prosopo)

يُحبّ، وبدون المحبّة، يكون الإنسان مريضاً، ومنحرفاً، وأنانيّاً، ولا يمكنُه أن يجدَ كمالاً ومعنىً لوجودِه.

المحبّة هي القوّةُ التي تُعطي الصحّةَ للإنسان. الزواجُ هو فُرصةٌ من فرصٍ كثيرة في حياتنا تُمنحُ فيها الإمكانيّةُ للرجلِ والمرأة ليتعايشا ويتَّحدا ويحقّقا هذا السرَّ العظيم للمحبّة، الذي يكتملُ بهما، وفيه يعيشان المحبّة الحقيقيّة نحو اللهِ الآب أولاً، وتُلقي بظلالها عليهما، ومن خلالهما، على العائلة، ومنها على العالم بأسره.

لقد شدَّد آباءُ الكنيسة على أنَّ المحبّة هي وليدةُ التواضع. وحدهُ الإنسانُ المتواضع يمكنُه أن يحبَّ بصدق. أمّا المتكبّر فلا يمكنُه بأيّ شكل أن يحبَّ أحداً لأنَّه يتوجّه نحو الآخرِ من أجل منفعتِه الشخصيّة وحسب. من لا يعيش فضيلةَ التواضع، يكون لسانُ حالهِ مع أيّ شخص آخر: «أنا أحبُّكَ وأنا محتاجٌ لأن أكون معك، ولهذا السبب عليك أن تلتزمَ معي ببعض الأمور. أحبُّك وأريدك أن تحبَّني وتحترمَني وأن أكون دوماً من أولوياتك». هذه

علاماتٌ واضحة لمرضِ نقصِ المحبّة لأنَّ «المحبّة لا تطلُب ما لنفسها» (١كور١٣: ٥). المحبّةُ تكتفي بأن تُعطي ذاتها، وهي لا تأخذُ بل تُعطي. المحبّةُ إن أخذت، تصلُ إلى قمّةِ الكمال وإن لم تأخذْ لا تنقص أبداً لأنَّها كاملةٌ. ما أجملَ أن يصلَ الإنسانُ إلى الكمال!

الزواجُ يقدّمُ الفرصةَ الذهبيّة للإنسان كي يُحقِّقَ الكمالَ وعبرُ الشَّريك الآخر، الزوج أو الزوجة. والاعتقادُ السائدُ بأنَّ الزواج يَكْتمِل بإنجاب الأولاد هو اعتقادٌ خاطئ. الزوجان مدعُوّان ليتجاوزا ذاتَهما ويتعدّياها نحو الآخر بغضّ النظر عن الميلِ الطبيعي تجاه أولادهما. أنْ نحبّ أولادَنا أمرٌ طبيعيٌ وبَشريّ بامتياز، ولكن أن نحبَّ شريكَ حياتنا في الوقتِ نفسه فهذا يتطلَّب جهاداً وتخطياً للأنا، وللفرديّة، وللاهتمامات والمصالح الشخصيّة؛ ووسطَ هذا الجهاد تكتَملُ التّضحيةُ في تقديم الذّات نحو الآخر.

المحبّة لا تطلبُ لنفسها شيئاً، وتتّصفُ بتقديم الذاتِ بالكليّة للآخر دون شرْط أو هدف. المحبّةُ هي ابنةُ التواضع،

وتظهر دوماً حيث يوجد السلامُ والهدوءُ والصّحة. حيث يكون الله تكون المحبّة لأنَّ «الله محبّة» (١يو٤: ٨).

يستطيع الإنسان أن يعيش فِعلَ المحبّة في عِدّة مواقفَ في حياته اليوميّة، وهذا ليس بالأمر السهل والبسيط، لأنَّ أكبرَ عملٍ روحي يقوم به الإنسان هو المحبّة، ويتطلب هذا جهاداً كبيراً لكي يتمّ بشكل صحيح. إنَّه يستلزم تحرُّراً من الذّات ولقاءً مع الآخر بدون خوف. قد يخاف الإنسان أحياناً من استغلالِ الآخر له إذا ما أحبَّه بالكليّة، ويخاف أن يستعمله كأداةٍ لرغباته. ويخافُ الإنسان أيضاً ألاّ يعطيه الله ما يريدُه مع أنَّه يقدِّم نفسه لله، واضعاً حياتَه بين يديه. هذا الشعور تكسِره المحبّة، وهي وحدها تعطي الإنسانَ القوّة كي يتابعَ حياتهُ دون خوف واضطراب وقلق، لذلك لن يجد الإنسان كمالَ شخصيّته إلاّ عندما يسلّم أمرَه لله أولاً، وللآخَر شريكَ حياته ثانياً.

إنَّ نتائجَ تناغم العائلة المبنيّ على المحبّة بين الشريكَين، انطلاقاً ممّا ذُكر أعلاه، إيجابية لا محالة ونلاحظُها، بشكل

خاص، من خلال مراقبةِ حياة الأولاد، لأنَّ السَّبَب الأساسيّ لوجودِ المشاكل في حياة الأولاد هو عدمُ تناغمِ الأهل، وهذا يُعتبرُ دليلاً قاطعاً لوجودِ خللٍ في فعل المحبّة ضمنَ العائلة.

يذكرُ كتاب الآباء الشيوخ القصّة التالية التي تُعتبرُ من أروع القصص التي تُظهِر عيش الفضيلة والمعنى الحقيقي لكي يعيشَ شخصان بسلام وتناغم:

عاش شيخان ناسكان في البريّة مُدَّة طويلة، وبعد حوالي ستين سنةً من حياة الشَّركة، قال أحدهما للآخر: «لقد عشنا يا أخي كلَّ هذه السنوات مع بعضنا، ولم نتخاصمْ، وأنا أعرفُ أنَّ الناس في العالم يتخاصمون دوماً، فلماذا لا نتخاصم نحن مثلَهم؟ دعْنا نجرِّبُ نحن ما يعيشه الناسُ يومياً ولو لمرَّة واحدةً في حياتنا». فأجابه الآخر: «حسناً ... فلنتخاصمْ! ولكن كيف يتخاصمُ الناس؟». قال الشيخ الأوَّل: «لِنضَعْ في الوسط جرَّة الماء، فتدّعي أنتَ أنَّ هذه الجرَّة لك، وأعارضُك القول بأنَّها ملكي

أنا، ويبقى كلٌّ واحد منّا مُتمسِّكاً برأيه، وبذلك نتخاصمُ ونتشاجر». وبالفعل، وضع الشيخان الجرّة في وسط القلّاية، وبدأت المسرحيةُ الحقيقيّة.

قال الأوّلُ: «هذه الجرّةُ لي»، فأجابه الثاني: «لا يا أبتِ، إنَّها لي». وعندها قال الأوّل للتوّ: «بما أنها لكَ، خُذها». فظهر ملاك الرّب حالاً على الشيخين الجليلَين، وكلَّلَهما بإكليل المجد، لأنَّ الفكرَ الذي حاربهما لم يستطعِ التغلّب عليهما.

إنّ ما يصيب الأهل من جروح نفسيّة يؤثِّر على الأولاد، والسببُ الرئيسي لهذه الجروح هو صِغَرُ النفس الذي يسجنُ الإنسانَ في فرديّةِ هذه النفس، ويملأُ حياتَه بالأشواك، فيجرَح مَن حولَهُ بسبب خشونةِ أشواكِه وقساوتِها.

لنتذكّر أنَّ المحبّةَ هي العنصر الأساسيّ للتناغم في عالم الإنسان الخاص وفي عائلته، ومنه لكلِّ المجتمع والعالمِ والخليقة. وبما أنَّ توازُنَ الكون يتبدّل لِقاء تغيّرٍ بسيط في

درجات الحرارة، هكذا تُبدِّل التصرّفاتُ السيّئةُ توازنَ العائلة كلَّهُ، وتتركُ نتائجَ سلبيّةً في نفوس أفرادها.

ماذا تقول الكنيسةُ في هذه الظروف؟

إنَّ العائلةَ تعيش صعوباتٍ مأساويةً هذه الأيام. وللأسف يلجأ كثيرون إلى الطلّاق؛ ويعني أنَّ العائلة تمرُّ بأزمةٍ كبيرة، وأنَّ الكلَّ يذوق الطَّعمَ المرَّ الذي ينتجُ عن هذه الأزمة وتداعياتِها، على المجتمع بشكل عام وعلى الكنيسة بشكل خاص، لأنَّ الكنيسة جزءٌ لا يتجزّأ من مكوّنات المجتمع.

من المؤكّد أنَّ أهمَّ أسباب الطلاقِ هو النقصُ في فنّ التناغمِ والتوازن والشَّرِكَة في العائلة، لأنّ هذا الفنّ وليدُ فنّ المحبّة المباركة بشكل أساسيّ. وإن لم يتخلّص الإنسانُ من الكبرياء والأنانيّة والفرديّة فلن يتمكّنَ من احتضانِ الآخر، بل يَصلُ إلى الدمار. في هذه الحالة تكون المحبّةُ كمثل محبّة «الدِّببة» التي تغمرُ صغارها بشدّة فتقتلُها

أحياناً، على حدّ قول الشيخ القدّيس باييسيوس الآثوسيّ. فالمحبّة التي لا تَتَنقَّى من الأهواء، وخاصّة الكبرياء، فإنّها ستَخنُق الآخرَ عوضاً عن بثِّ الحياة فيه. وستدمِّره بدلاً من مساعدته في تحقيق إنسانيّته. وعِوَضَ أن تعطيه تأخذُ منه، وقد يصلُ بها الحال إلى قتلِهِ لأنَّها تطلبُ ما لنفسها. المحبّةُ المريضة، يا أحبائي، تريدُ كلَّ شيءٍ لها كالطفيليات التي تعيش على حساب الآخر، وتقتله عندما تموت.

تَنشُدُ الكنيسةُ المحبّةَ في إطار دورِها الشفائي، وتعطي ذاتَها للآخر باعثةً فيه الحياةَ والفرح، فيعيشُ مع مَنْ حولَه بِصدق، مُعطياً إيّاه مجالَ تحقيق وُجودِه وذاتِه. بالمحبّة الحقيقيّة «نحْيا ونتحرّك ونوجد» (أع ١٧: ٢٧) لأنَّها تنبُع من الله. المحبّةُ، في الكنيسة، تُعطي الإنسانَ الفرصةَ لكي يتواجَدَ مع الآخر ويعيش معه حياة مثاليّة تظهرُ فضائلُها على الأولاد والمجتمع.

هلمّوا يا إخوةُ نتخطّى الخوفَ الناتجَ عن الفرديّة، ونحبَّ الله الآب بصدق، ونحبَّ بنعمته، وبحريّة مطلقة،

أخانا الإنسانَ وشريكَ حياتنا، وعدوَّنا، وكلَّ شخصٍ نصادِفه لأنَّ كلَّ إنسانٍ على صورة الله.

مع الدُّعاء بأن تُكلِّل المحبّةُ الإلهيّة كلَّ العائلات، بنعمة الله على الدوام، آمين.

الإنجاب وتربية الأولاد

تتعاطى الكنيسة مع الإنسان بشكلٍ شُموليّ، وتفصلُ بين الجسد والرّوح، ولا تَحصرُ اهتماماتها بالروحيّات مُهملةً الجسديّات والماديّات؛ بل تَهتمُّ بكلّ ما يختصُّ بحياة الإنسان وتُعمّدُها في سبيل الوصول إلى الله والعيش معه.

ومن هذا المنطلق، تؤمن الكنيسةُ أنَّ أحدَ أهمِّ الأسس المُبهجةِ في الحياة الزوجيّة هي أن يفرح الإنسان برؤية خلفٍ صالح لهُ ويفتخر بهِ؛ كما تصلّي الكنيسةُ من أجل أن يفرح الزوجان برُؤية بنيهما وبناتِهما، ويبتهجا بذُرِّيَّتهما الصالحة. وهذا الأمر مهمٌّ وطبيعيّ جداً.

ومن المهمّ أن نطرح سؤالاً أساسيّاً: هل يُحقِّق الزواج هدفَه بالإنجاب؟

ليس الإنجابُ هدف الزواج، مع العلم أنَّه مُهمّ وأساسيٌّ في حياة الزوجَين، ولهذا لا يمكِنُنا اعتبارُ زواجِ الذين لا يُنجبون؛ زواجاً فاشلاً أو ناقصاً.

الهدفُ الأساسي للزواج هو اكتمالُه عَبْر الاتِّحادِ بالعريسِ السماويّ، يسوع المسيح، اتّحاداً بالمعنى الروحيّ والأسراريّ، وليس بالمعنى الحَرفيّ للكلمة لأنَّ «الحرف يقتل أمّا الروح فيُحيي» (٢ كور ٣: ٦). وعلى هذا الأساس، يتخطّى الإنسانُ صعوبات الحياة الزوجيّة، ومنها مشكلُة عدَمِ الإنجاب خصوصاً.

لذلك لا تكون استمراريّة الزواج مضمونة إذا بُنيت على أُسس متزعزعة وخاطئة، ولو كانت منطقيّةً في ظاهرها، لأنّ البناء الزوجيّ يكون معرضاً للهدم في أيِّ وقت من الأوقات. ولذا بات من الضروري، في هذه المرحلة، تمتُّع الزوجَين بفضيلة التمييز كشرطٍ أساسيّ لاستمراريّة الزواج وصيانته.

من المنطقيّ أن يفكّر الإنسان بالأمور الحياتيّة في الزواج

بشكل جِدّي وأن يحلمَ بمستقبل حياته، ولكن، عليه ألاّ يسترسلَ في الأحلام لأنَّها قد تخذله، وقد يتذوَّق شيئاً من مرارة الحياة، وخصوصاً عندما يرى أنَّ بعض التطلّعات والأهداف تدمّرت من حوله، وعندها يفهم أنَّه كان يبني زواجَهُ على أساسٍ متزعزع. لذلك وجب على الإنسانِ أن يكون مستعدّاً وجاهزاً لكلِّ تحدٍّ كجنديٍّ للمسيح، وألاّ يبني زواجَه على فرضيّة الفشل، وإنَّما على الأساسِ والهدفِ الصحيحين في محبّة الله؛ أمّا الأحلامُ والأولادُ فيأتيان كنتيجةٍ طبيعيّةٍ لهذه المحبّة.

عدم الإنجاب ليس سبباً وجيهاً لانفصال الزوجَين، وهذا الأمرُ مؤلمٌ جداً، خاصّةً عندما يقول الرجل للمرأةِ: «أنا تزوجتُكِ لتُنجبي لي الأولاد». هل يتزوّج الإنسانُ امرأة لتُنجِبَ له الأولاد فقط؟ هل المرأة آلةٌ للإنجاب؟ نضعها جانباً بالطلاق عندما تتوقف عن العمل؟ والأمر سيّان إذا كان الرجل هو العاقر. إنَّ هذا الفكر غيرُ مقبول بتاتاً! أليس الذي نرتبط به في سرّ الزواج إنسانٌ؟ هل وظيفته فقط هي إنجاب الأولاد؟

هل ينحصرُ دورُ المرأة أو الرجلِ في هذا السرّ العظيم، في الإنجاب فقط!

ينشغل العديدُ من الرجال بأولادهم، تنحصرُ بهم جميعُ اهتماماتهم فينسون حضور زوجاتِهم في المنزل، غير مكترثين بهنَّ حتى في أبسطِ حقوقهنَّ العاطفيّة، لأنّهم لا يعتبرونها زوجةً، بل أُمّاً لأولادهم فقط، وهذا خطأٌ كبيرٌ رُغمَ قُدسيّة الأمومة، لأنَّ الآخر الذي أنتَ في شركةِ زواجٍ معه هو نصفُك، هو ذاتُك، والكتابُ المقدَّس يقول «ويصيران كلاهما جسداً واحداً (تك ٢: ٢٤). إنَّ إهمال الشريكين لبعضهما يؤدي، دون انتباه، إلى جِراح خطيرة في العائلة. إنَّه بالطّبع خطأ من قِبَل الطرفَين ولكنَّه أكثرُ شيوعاً عند الرجال.

يقول الرسول بولس: «الرجلُ هو رأسُ المرأة» (أف ٥: ٢٣)، وهذا صحيح! ولكن أحد الآباء الشيوخ يقول: «إنّ المرأة قلب الرجل»؛ فكما أنَّ الجسد عديمُ القيمةِ بدون الرأس، هكذا يكون الجسدُ ميتاً بدون القلب. من أجل هذا خلق

الله الرجلَ والمرأةَ من جنسَين مختلفَين لكي يُكمِّلا بعضهما بعضاً في وحدة الرجل- المرأة، التي هي وحدةٌ وشخصٌ وجوهرٌ واحد ثمرتُه الأولاد.

خلق الله الإنسانَ، «رجلاً وأنثى خلقهما» (مت ١٩ : ٤)، ولا يستطيع أحدُهما أن يُنجبَ من دون الآخر، لأنَّ الله أعطاهما هذه القدرة من خلال الشَّركة مع الجنس الآخر وهذه هي ميِّزتُها. الزوجان لا يُعتبرانِ شخصين اثنين بل ثلاثة، إذ هما في شركةٍ مع الله على صورة الثالوث. وهذه الشركة تؤكّد أنَّ جوهر «الرجل-المرأة» لا يمكنه أن يتحقّق إلاّ في الاتِّحاد الذي لا يكسره وجود الأولاد. ولهذا السَّبب لا يمكن للرجل أو المرأة أن يختزل أحدُهما الآخرَ بحجّة الأولاد، لأنَّ هذا الاختزال سيؤدّي إلى مشاكلَ جمّةٍ في حياة العائلة.

من المنطقيّ أن يفرح الأهلُ ويفتخروا بأولادهم. ولكن، من المهمِّ أن يتصرّفوا بتمييزٍ وحكمةٍ كي لا يُسيئوا إليهم، فالتربيةُ المُتّزنةُ هي المعيار، لأنَّ الدلعَ والافتخار المُفرِط

يؤذيانِ الأولادَ ويقتلانِهم روحياً، ويُنمّيانِ روح العظمة والتسلُّط في نفوسهم ضمن محيطهم ومجتمعهم، وقد تطالُ هذه الرّوحُ الأهلَ أيضاً؛ وعندها تضيع البوصلة. لذلك وجبَ على الأهل والأولاد أن يفهموا دور كلٍّ طرف في حياة الآخر. فالأمّ على سبيل المثال لا يغمضُ لها جفنٌ إن لم تطمئنَّ بعودة ولدها إلى المنزل، وعلينا أن نفهم شعورها طبعاً؛ لأنَّ ما تقوم به لا يأتي من باب التزامها بواجباتِها بل ينبعُ من دورِها ومن مشاعرها الوالديّة، ومن شخصيَّتِها التي تتكوّن من لحظة أمومتها وحتّى لحظة مماتها.

أن يُنجبَ الزوجانِ أمْر أساسيٌّ ومطلب حَقٌّ، ولهذا نسمعُ الكثير عن طرقٍ وأساليبَ علميّةٍ حديثة تساعد على الإنجابِ في حالات معيّنةٍ وخاصّة جداً، واستخدامها ليس أمراً خاطئاً إذا كان ضمن الشروطِ والمعايير الطبيّة التي تضمنُ سلامةَ المولود.

وأعتقد أنه لم يصدر، حتى الآن، أيُّ موقفٍ رسميّ للكنيسة بهذا الخصوص. ولهذا سأتكلَّم، منطلقاً من

رأيي الخاصّ، أي أنَّ ما سأقوله لا يمكن اعتبارُه رأياً رسميّاً للكنيسة. الكنيسة، في نظري، تتحفّظ على حالة التلقيح الاصطناعي لأنَّه من الممكن أن ينتج عنه عدّةُ أجنّة، بسبب استعمال عدد غيرِ مُحدّد من البويضات. والكنيسة تعتبر أنّه من لحظة التلقيح تبدأ حياةُ إنسان جديد، لهذا تقف بكثير من الاحترام أمام هذا الحدث، ولا يمكنها تجاهلُ موت بعض الأجنّة وتَلْفِها.

تَرِد في خدمة سرِّ الزواج الطلبةُ الآتية «من أجل أن يُمنحا التمتُّعَ بحُسنِ التوليد». و«حُسنُ التوليد» هنا لا يتوقفُ على ولادة الأولاد الأصحاء وحسب، بل يتعدّاه إلى العملِ على نموّهم وعيشهم بطريقةٍ جيّدة وكريمة؛ فكما يفرح الإنسانُ بأولاده ويتمتَّعُ بهم، يتألّم إذا كانوا صعابَ الطبْعِ على شتّى الأصعدة، فهذا يُؤلِمُ الأهلَ بسبب حبّهم لأولادهم.

تربيةُ الولد تبدأ من رحَمِ الأم، لا بل أؤمن أنَّها تبدأ من لحظة التعارف الذي يحصل بين الزوجَين وكيفيّة

معاملتهما لبعضهما، ولهذا تتأثّر شخصيّةُ الولد بشخصيّة الأهل وتتطبّع بها. كلُّ الأحاسيس والمشاعر والصفات في مراحل حياة الإنسان العاطفيّة، أي في التعارفِ والخطبة والزواج، ترافقه أثناء العلاقة الزوجيّة. إنَّ ما يحمله الزوجان في قلبيْهما يؤدي إلى تصوُّرِ شخصيّة الجنين ومعرفة ما إذا كانت شخصيّةً إيجابيّة أو سلبيّة. وفي هذا الشأن يقول القدّيس بورفيريوس الرائي: «عندما يريدُ الزوجان إنجابَ ولد، عليهما أن يكونا بحالة نفسيّة وروحيّة جيّدة ومتَّزنةٍ وهادئة وأن يكونا في تناغم».

لا بدَّ أن نؤكّدَ أنَّ الكنيسةَ تَدين الزنى وترفضهُ، لأنَّها لا تقبل ما يُدمِّر قدسيَّة العلاقة الزوجيّة ويشوهها بين الرجل والمرأة. إنّه لأمرٌ غيرُ مقبولٍ أن تتشوّهَ قُدسيّةُ الإنسانِ الذي خُلقَ على صورةِ اللهِ ومثالِهِ، وأن تتدنّسَ بالصور والمشاهد الإباحيّة التي تُروَّج هنا وهناك.

الأسرة الملتزمةُ بالكنيسة والحياة الروحيّة يلمعُ أولادُها في مجتمعهم، لأنَّهم يأتونَ كثمرةِ صلاةٍ وعلاقة مباركة، فتراهم

هادئين في معموديَّتهم لا يبكون ولا يَضجّون، يتقدّمون إلى المناولة المقدَّسة بكلِّ هدوءٍ منذ شهرهم الأوَّل. كلُّ هذا لأنَّ النِّعمة الإلهيّةَ تعملُ في حياتهم منذ نعومةِ أَظْفارهم؛ وفي المقابل تلاحظون بعضَ الأطفال يدخلون إلى بيت الله وهم في خوف واضطراب، فتستنتجون أنَّ نفوسهم قلقة مع الجوّ العام للمنزل، وأنَّهم لم يعيشوا منذ ولادتهم في أجواءٍ روحيّةٍ وإنّما طغتِ الأجواء العالميّة على حياتهم.

لا بدَّ أن أشيرَ إلى أنَّ العلاقةَ الجسديّةَ بين الزوجَين يجب أن تكونَ على مستوىً رفيعٍ من القُدسيّة والجِديّة والكرامة، وهذا ما يؤكّدهُ العلم والطبيعةُ البشريّة والكنيسة، والذهنُ البشريّ الناضج. بهذا العمل الجسديّ يخدم الإنسانُ سرَّ تجسّد أولاده مُشاركاً الله بعمليّة الخلْق. لهذا لا يمكن أن يتشبّه الإنسانُ بما يراهُ في الأفلام الإباحيّة على الإطلاق، بل عليه أن يتعاملَ مع شريكه بكلِّ احترام، وأن يكون على قمَّةٍ من المسؤوليّة بكلِّ ما يختصُّ بإنجاب الأولاد.

عندما يرى الإنسان أولادهُ يكبرون وينمون بالنِّعمة

والقامَة يتذكّر تلك الأيّام المُباركة التي أمضاها مع الشَّريك. وعندما يكون الأهلُ بعيدين عن روح الله والالتزامِ الكنسي ينشأ الأولادُ في حالةِ اضطرابٍ وتوتّرٍ غير طبيعيين. لنتذكر أنَّ الطفل يبدأ باقتناءِ الصفاتِ والخِصال في شخصيّتهِ بدءاً من لحظة الحَبَل، وهذا ما يُسمّى اليوم علم نفس الجَنين، ولذلك يَتمُّ الاعتِناءُ بالأولاد، لا من لحظة الولادة فقط، بل من لحظة الحَبَل بهم.

كلُّ ما أشرنا إليه ضروريّ جداً إذا كان الإنسان يريد «التّمتع بحسُن التَوليد».

محطّاتٌ حياتيّة من وحْي خِدمة الإكليل

يرِدُ في خدمة العُربون، وفي خدمة سرّ الزواج، العديدُ من الطلبات التي تشدّدُ على قدسيّةِ هذا الرّباط الزوجيّ وأهميّته. ولهذا يلجأ المتروبوليت أثناسيوس، في سياق محاضراتِهِ، إلى شرح معانيها الروحيّة والعمَليّة. نذكر فيما يلي نماذج منها.

١- «من أجل أن تُوجَّه لهما المحبّة الكاملة السلاميّة والمعونة»

ما المقصود بالمحبّة الكاملة؟ وهل هنالك محبّة ناقصة؟ نعم، بالطبع هنالك محبّة غير كاملة؛ فالمحبّةُ توجدُ داخل كلِّ إنسان ولكنَّها ليست المحبّة الكاملة إطلاقاً، بل تَشوبُها

بعضُ الأمراض. المحبّةُ الكاملةُ هي المحبّة التي لا تنتهي لأنَّها محبّة الله، وهي موهبةٌ من الرّوح القدس، لا تطلب ما لنفسها، ولا تُجبرُ الإنسان على شيء. المحبّة الكاملة لا تُضمِرُ الشرّ ولا تتكبّر، بل تُعطي للآخر حرّيَّة الوجود والتحرّك. المحبّةُ الكاملةُ هي اللهُ نفسه لأنَّ الله محبّة، ولا أحد يحبّنا أكثر منه. هو يتعامل معنا بكثير من الاحترام، لأنَّه القادر على كلِّ شيءٍ، يدعونا إليه بمحبة وبأسلوب بسيط وناعم.

آباؤنا وأمّهاتنا يعرفون هذا الأمر وينتبهون إليه بشكلٍ واضح، لأنَّهم يحبّون أولادهم حبّاً صادقاً لا شكّ فيه. وإنْ لم تكن محبّتُهم هذه كاملةً وناضجة وروحانيّة، فمن المُمكن أن تتحوّل إلى عذاب، لهذا السَّبب لا يحتملُ الأولاد أحياناً ضغوطات والديهم فيرفضون تدخّلهم بشؤون حياتهم، وقد يصلُ بهم الأمر إلى رفض محبّتهم.

المحبّةُ مهمّةٌ جداً وأساسيّةٌ في حياة العائلة، ولكنَّ الأهمّ هو كيفيّة التعبير عنها. لذلك نطرحُ هذه التساؤلات على

الدوام: هل تتحقّقُ المحبّة باستعبادِ الآخر؟ هل تكون المحبّة بِطَمْسِ شخصيّته؟ أم تكون بإدخال الفرح إلى قلب الآخر وعدم إكراهه لفعل أيّ شيء؟

المُحبّ الحقيقيُّ يفرحُ عندما يرى أنَّ شخصيّة الآخر تكتَملُ أمامه. المحبّة الكاملة لا تتناسب، ولا تنسجم، مع الغيرة، والغيرة العمياءُ مرض، وهي لا تعبّر عن المحبّة ولا تخدمُ سرّ الوصول إلى المحبّة الكاملة. كما أنَّ طرْحَ أسئلةٍ على الآخر مثل: مع من تكلّمتَ؟ أين كنتَ؟ ماذا فعلتَ؟ لماذا نظرتَ؟ من اتصل بك على الهاتف؟ أقول إن طرْحَ هذا النوع من الأسئلة هو دليلُ مرضٍ وليس دليلَ حبّ. إنَّ هذا الأسلوب في التعاملِ لا يُعتبرُ حبّاً، بل هو افتراسٌ محترمٌ للآخر، وكأنَّ الواحدَ يأكلُ الآخرَ بأسلوبٍ راقٍ، بالشَّوكة والسِّكين.

علينا أن ننتبه إلى هذا الأمر، فاقْتناء المحبّةِ الكاملة يحتاجُ إلى جهاد ويقَظة، ويتطلّبُ تواضعاً أيضاً، لأنَّ الإنسان المتواضع هو فقط مَن يُحبّ بشكلٍ صحيح،

والمتكبّر يحبّ بأنانيّةٍ ويطلبُ ما لنفسه وليس ما لغيره. لذلك عندما يسير الإنسانُ في طريق الحياة الروحيّة ويتقبّلُ باستمرارٍ العلاج الروحيّ المستديم، يستطيع أن يحبّ بشكلٍ صحيح ويصلُ إلى كمالِ المحبّة التي من المسيح يسوع. هذا يتطلَّبُ جهاداً مستمراً في سبيلِ اكتساب فضيلةِ التواضع التي بواسطِتها يتعافى الإنسان من أنانيّته وينمو مع شريك حياته بعافية روحيّة.

٢- «من أجل أن يُحفظا في الاتّفاق والإيمان الوطيد»

كلمةُ «اتّفاق»[١] كلمةٌ تجمع بين «الواحد»[٢] و«الذهن» أو «النوس»[٣]، وهذا يعني أنَّ المقصودَ بالاتّفاق هو الذهنُ الواحدُ والفكرُ الواحد، لذا تصلّي الكنيسةُ كي يكون الزوجانِ مُتّفقين بالفكر، ويتكلّما اللّغة الفكريّة نفسَها، ويمتلِكا المصلحةَ والهدفَ نفسَه، إلاّ أنَّ هذا لا يعني، بالضرورة، التماهي والوحدة في

١ Ομόνια (Omonia)
٢ Ομο (Omo)
٣ Νους (Noûs)

الرأي دائماً. قد يحبُّ الواحدُ الآخرَ لكنّهما يختلفان بالرأي وبطريقةِ التفكير، وهذا طبيعيّ جداً. إنَّها مشكلةٌ كبيرةٌ أن تتحقّقَ المحبّةُ فقط بين الناس أصحابِ الفكر الواحد والرأي الواحد. إلزامُ الآخر بفكرِنا الخاصّ كشرطٍ للاتّفاق هو خطأٌ كبير، ولا يدلُّ على محبّةٍ كاملة وجليلة. أمّا جمالُ المحبّة فيكمُن في احترام حريّة الآخر دون خلقِ المشاكل عند اختلاف الرأي معه.

المؤكّد صعوبةُ تنازلُ الواحد للآخر ولكنَّ هذا ما نحتاجُه بالضبط، فقبولُ فكر الآخر والتنازلُ من أجله هو فرصةٌ لربحِ هذا الآخر. هذا مصدَرُ قوّةٍ وليس مصدر ضعف وخُنوع، لأنَّ الضّعيف هو الّذي يرتجف ويخاف من التنازل عن رأيه، وعندما يفسح الإنسانُ الفرصة لشريكه أو لصديقه أن يفعل ما يريد فهذا سيكون مَدعاةً للفرح والراحة، وهذا دلالةٌ على امتِلاك الإنسانِ قوّةً كبيرة، ليصبح حرّاً مُطلقاً، لا يخاف ولا يقلق ولا يعقِّد الأمورَ في ذهنه، بل يعيشُ حرّاً ويُحرّرُ معه الآخرين.

ولكن قد يتساءل المرء ويقول في نفسه: هل يستغلُّني الآخر بسبب موقفي هذا؟ إنَّ موضوع استغلالِ الآخر لمحبّتِنا ليس بهذه البساطة، وإنْ فَعلَ ذلك، فلن يصيبَنا أيُّ شرّ إطلاقاً، كما أنَّ الفيل لا يشعر ولا يتأثّر بجلوس بعوضةٍ على ظهره!

على الإنسان ألاّ يخافَ، وأن يتحرّر من هذه الأفكار السلبيّة مُقتنِياً في داخله بِذاراً صالحاً لكي يكون ساعياً إلى الكمال فيحقّقَ حريّتَه التامّة ويساعد الآخر. وإذا أخفق هذا فالمُحبّ لن يخسر إطلاقاً لأنَّه بمحبّته ومُساندته للآخرين يقترب من الكمال أكثر وأكثر.

الاتّفاقُ الذي نطلبه من الله هو العيشُ في المحبّة الكاملة، وعطاءُ الحقّ للآخر في حريّة مُقاربة الأمور. هذه المحبّة تولّد الثّقة، وتُقوّي الإنسان وتُحرّرُه من الخوف لأنَّه «لا خَوْفَ فِي الْمَحَبَّةِ، بَلِ الْمَحَبَّةُ الْكَامِلَةُ تَطْرَحُ الْخَوْفَ إِلَى خَارِجٍ لأَنَّ الْخَوْفَ لَهُ عَذَابٌ. وَأَمَّا مَنْ خَافَ فَلَمْ يَتَكَمَّلْ فِي الْمَحَبَّةِ» (١يو٤: ١٨). عندما يسيطرُ

الخوف على الإنسان يبدأ بالتدقيق والتعليق على التفاصيل الصغيرة، كاحتسابِ الدقائق التي استغرقها الآخرُ لشراء بعض الحاجات والشكِّ به إذا تأخَّر قليلاً، وما هذا إلاّ استعمالٌ للقيودِ، وظهورٌ واضحٌ للكبرياء، وانعدامٌ للثّقة، ومحبّةٌ خاطئةٌ.

الزواج محطّةٌ رائعةٌ في حياة الإنسان، وفرصةٌ توصِلهُ إلى الكمال بيسوع المسيح، ولكنَّه، بالطّبع، ليس المجالَ الوحيدَ لبلوغ هذا الهدف، حيث يمكنه أن يصلَ إلى هذا الكمال المنشود بعدّة طرق: فالمتزوّجُ بزواجه، والعازب بعزوبيّته، والراهبُ بحياته الرَّهبانيّة الملائكيّة. وحتّى لو كان الإنسانُ فاشلاً في الزواج أو مريضاً أو عجوزاً أو أيَّ شيءٍ آخر، يمكنه أن يستغلّ حالتَه لاقتناء الحياة الأبديّة.

المسيحُ والنعمةُ الإلهيّة لا ينحصران في طريقٍ واحد أو أسلوب عيش واحد. ويلٌ لنا إنْ كان الله محصوراً بطُرقٍ وأماكنَ ووسائلَ محدَّدة، إنَّ هذا ليس من طبيعته، لأنَّه «الحاضرُ في كلِّ مكان والمالئُ الكلّ». والإنسان، حيثما

كان، تتوفَّر له القدرة على الخلاص، وما عليه إلاّ أن يقدّسَ مكانَه وزمانَه. إنْ في الزواج؟ فليقدّسْ زواجَه. أو في العزوبيّة؟ فليقدّس عزوبيّته. أو في الرهبنة؟ فليقدّس حياته الرهبانيّة. هذه جماليّةُ حضور الله التي تُحرِّرُ الإنسانَ وتعطيه القوّة ليعيش الحياةَ في المسيح براحةٍ تامّة، وألاّ يشعر أنَّه مُجبرٌ على اختيار أيِّ أمرٍ أو طريق محدّدٍ للخلاص.

يسألُ الكثيرون اليوم: أليس الزواجُ والرهبنةُ هما الطريقان الوحيدان فقط؟ الويلُ لنا إن كُنَّا محصورين بهاذين الطريقين. فهل فُرِضَ على الإنسان أن يتزوّج أو أن يسلُك طريق الرهبنة؟ الجوابُ هو: لا، لأنَّنا نعرف أشخاصاً لا يريدون أيّاً من هذين الطريقين وإنَّما يفضِّلون طريقاً آخر مختلفاً بالكليّة، لأنَّ سيرَ أمور الحياة لا يكون بالإكراه. نحن لا نفرضُ على من لا يريد الزواج أن يلتحق بالدَّير، وإنَّما ندعوه أن يُقدِّسَ مكانَه وزمانَه وطريقةَ حياته، وهذا يكْفيه ليسيرَ في طريق الخلاص.

ختاماً، عندما يكون الله حاضراً في حياة الإنسان فلا بدَّ أن يُثمرَ نجاحاً وصلاحاً مَبنِيّين على أساس التواضع الذي هو نعمةٌ من الرّوح القدس. وإذا لم يملكِ الإنسانُ التواضعَ، راهباً كان أم متزوِّجاً، إكليريكياً أم علمانيّاً، فهو في مرضٍ. إنَّ التواضعَ هو دلالةُ حضورِ الله في قلب الإنسان.

٣- «شدِّدهما بالاتّحاد المُقدّس الذي منكَ»

تطلب الكنيسة من المسيح أن يُعطيَ الزوجين الاتّحادَ الذي ينبعُ منهُ بواسطة المحبّة. ولا بدّ أن نوضحَ أنَّ الصلواتِ التي تُقال في الأسرار الكنسيّة لا تحملُ فرضيّة تحقيقِها أو عدمِه، لأنّ ما يُقال ويُطلب في السرّ سوف يُعطى للإنسان بدون أدنى شكّ، إلاّ أنَّ فاعليّة الصلاةِ والطلباتِ تتحقَّقُ بتجاوبِ الإنسان معها بحريّة.

تطلب الكنيسةُ، في خدمة الإكليل، أن يشدّد الله الزوجين ويُوحِّدهما بنعمتِه لأنَّها تعرف أنَّ إحدى أهمّ

المخاطر في مسيرةِ الزواج هي ألاّ يكون الإنسانُ مُتأكداً مِن أنَّ الشَّريك الآخر سيُكمل معه الطريق، لذلك كانوا يطلبون من العروسين قديماً أن يُعلنا إرادتَهما وموافقتهما على الارتباط بالآخر أمام الكنيسة جمْعاء، خوفاً من أن يكون أحدُهما مُجبراً على الزّواج. إنَّ الاقترانَ الزوجيّ أمرٌ في غاية الأهميّة، لذا على المرء أن يكون عارِفاً ومُتأكداً، بشكل تامٍّ وكاملٍ، بما يقومُ به من كلِّ النواحي.

في هذه الأيام تتَبادرُ إلى أذهان بعض شبابنا أسئلةٌ مصيريّةٌ كثيرة، أذكر منها على سبيل المثال: «إنَّني أرغبُ بالزواج من هذه الفتاة، لأنَّها مهذّبةٌ وجدّيّةٌ وقادرة على إدارة بيتها، إلاّ أنَّها ليست فائقة الجمال؛ أيّ أنَّها تملكُ الكثير من الصفات الحسنة ولكنَّ جمالُها لا يُبهِرني ولا يشدُّني إليها! فهل أُقدم على الزواج منها؟». والجواب بسيط: «طبعاً لا. لا تتزوَّجْها». كما أنَّ هذا التساؤلِ وهذه الحيرة تحصلُ أيضاً مع الفتيات.

إنَّ أغلبَ أولادنا الملتزمين كنسيّاً يركّزون على الصّفاتِ

الداخليّة عند اختيار الشَّريك، متجاهلين الصّفات الخارجيّة بحيث لا يُعيرونها أيَّ اهتمامٍ البتّة. لا شكَّ أنَّ الصّفات الداخليّة والأخلاقيّة مُهمَّة جداً، ولكنَّ الارتباطَ الزوجيّ يتطلَّبُ تكاملاً في جميع الصّفات، وعلى المرءِ أن يتأكّدَ من قَبولها كلَّها قبل أن يُقدِم على هذه الخطوة. تجدرُ الإشارة إلى أنَّ الصّفات الخارجيّة الجسديّة والجماليّة قد تُشكِّل عقبةً مؤلمة، عندما يتعب الإنسان من ضُغوطات الحياة ويكتشف بعض ضُعفات الشَّريك، وعندها يكون الشّكلُ الخارجيُّ سبباً وعلّةً تؤدّي إلى غرقِ زورق الزواج، على الرُّغم من التّقبّل النفسيّ للآخر.

من ناحيّة أخرى، على الإنسان أن يتحلَّى بالجدِّيّة، لأنَّ عَينهُ صارت تفتقرُ إلى الصّفاء، ولم يعد صاحبُها يَنظرُ إلى الآخر بعيونٍ نقيّةٍ بل صار النَّظرُ شريراً «سراج الجسد هو العين، فمتى كانت عينك بسيطة فجسدك كلُّه يكون نيِّراً، ومتى كانت شرِّيرة فجسدُك يكون مُظلماً» (لو١١: ٢٤). يعود هذا الميل الرديء إلى محبّةِ الذّات والكبرياء عند الإنسان، وبهما تتدمَّر العلاقةُ بين المُتزوِّجَين.

إنَّ عاملَ الوقت كفيلٌ بمساعدة الإنسانِ على تخطّي فكرةِ عدم التأكُّدِ من العلاقة مع الشَّريك، إلاّ أنَّ محبَّة الذّات والكبرياء والتعالي على الآخر تمنعُ الإنسانَ من التّفكير والتّأكّد بشكلٍ سليم. ولهذا السبب يتخلّى المرء، في بعض الحالات، عن شريكِه بسهولة دون أن يتأثَّر أو ينزعج، مُتجاهِلاً أنَّه خان الوعد الذي أعطاه أمام الله والناس. مُعتقداً أنَّ حياته ستسير على ما يرام، ومُتناسياً، بسبب كبريائه، عينَ الله الساهرةَ التي تنظرُ إلى الجميع.

أنا متألّمٌ لأنَّ «النظرةَ الشِّريرة» مُسيطرةٌ على الإنسان منذ زمن بعيد، وهي مُتفشِّيَةٌ بشكل واسع جداً في أيامنا هذه، وخصوصاً من خلال الإعلانات، وما تروِّجُهُ المواقع الإلكترونيّة التي تجعل الإنسانَ عبداً للجسد وسلعة للمُتعة. هذا كلُّه يدَّمر الإنسان ويجعلُه ينسى أنَّ للجسد قُدسيّةً، لأنَّ الجسد هو «هيكلُ للرّوح القدس» (١كو٦: ١٩).

لا يجوز أن تكون العلاقات الجسديّة مُباحة. أنا لا أقول هذا من مبدأ العداوة للعلاقة الجسديّة بل من حيثُ

أنَّها تُعتبر كلِّيّة القداسة وكلِّيّة الاحترام، ولأنَّ المُقدّساتِ الزوجيّة ليست للاستهلاك والتداولِ العامّ في كلِّ وقت وفي كلِّ ساعة، ولا يمكن للإنسان أن يتعامل معها بطريقةٍ غيرِ لائقة. لنتذكَّر دوماً أنَّ من أهمّ مبادئِ الزواج المسيحيّ أن يُنقّي الإنسان حواسّه ويجاهدَ كي لا ينظرَ إلى الآخر نظرةً شرّيرة.

لكي يُكمل الإنسان هذه المسيرة المباركة، عليهِ أن يتأكَّد بشكل كاملٍ وتامّ من كلَّ مشاعرهِ وأحاسيسه، وأن يكون مُستعدّاً ليعطيَ ذاته للآخر بدل أن يستغلّه ويأخُذَ منه، وأن يشعر جديّاً بهذا العطاء الكليّ. الأهمّ هو أن يثقَ الإنسان بالآخر طارحاً الشّكوكَ والأوهامَ، لأنَّه إذا استبدَّتْ به الأفكارُ الغامضة والأوهام الشرّيرة سوف تتزعزع حياتُهُ ويُمْسي عاجزاً عن إيجادِ الحلولِ لهذه المشكلة ولغيرها فيما بعد.

٤- «تثبيت القول»

ترمزُ الخواتم في صلاة العربون، إلى تثبيت القول الذي تكلّم به العروسان، وكأنّ الخاتم هو الضمانةُ على أنَّهما سيُكملان، بإذن الله، طريقهما نحو الزواج. هذا يتطلَّب أن يكون العروسان ناضجَيْن وجديَّين في مسيرِهما، وأن يكونا في اتّفاقٍ وتفاهُم. العربون ليس زواجاً بل هو اتّفاق جِدّي[٤].

من المفضّلِ ألاّ تمتدَّ فترةُ الخطوبة مدّةً طويلة لئلّا يُرهَقَ الطرفان، وينمو لديهما شعورٌ بعدم الحاجةِ للزواج. والحقيقةُ أنَّ العلاقاتِ العاطفيّة الطويلة الأمد، وغير المبنيّةِ على بركة الله وجمالِ النعمة الإلهيّة المتمثّلَة في سرّ الزواج، تنتهي بالانفصالِ بسببِ ضَياع المحبّة.

٤ في هذه الأيام يُفضّل إتمام صلاة العربون مع سرّ الزواج وليس منفصلاً كما كان يحدث قديماً. وقد اتخذ المجمع المقدّس في كنيسة قبرص قراراً بعدم فصل الخدمتين لأن العديد من الأشخاص كانوا يعتبرونها زواجاً ويعيشون مع شريك حياتهم كزوجين رسميين مُتساكنَين. وقد يستغلّها البعض فرصة للكسب المادي فقط.

الكنيسةُ تباركُ هذا العربون وتضع الخواتم في إصبع كلٍّ من الخطيبَين كإشارة منظورة لبركة الله وللارتباط المقدّس. هذا يحمل عدّة معانٍ مهمّةٍ أمام عرش الله؛ يعني أنَّ الخطبة ليست مجرَّدَ حدثٍ اجتماعيّ، بل هي إشارةٌ لحياة شركة أبديّة بين شخصين في وسْط الكنيسة.

إنَّ ما يحدث في الخِدم الأسراريّة من حركاتٍ وأشكالٍ ليتورجيّة ليست مُجرّد احتفال كنسيّ بل هي عملٌ جوهريّ. السرُّ نفسُه هو أيضاً كذلك. ما يُتلى من الصلوات في الكنيسة هو حقيقةٌ وواقع فعلاً. عندما نُصلّي أثناءَ سِيامة الكهنة لتحلَّ نعمة الرّوح القدس على المزمعِ أن يَصير كاهناً، فهذا يتحقّق، والأمرُ لا يحتملُ إمكانيّة عدم صيرورته! بل إنّهُ يصير فعلاً؛ وأيضاً عندما نُعمِّد طفلاً يصبحُ هذا الأخير مسيحيّاً، أي يَخلعُ الإنسانَ العتيقَ ويلبس المسيح، وتستقرّ في قلبه نعمةُ الرّوح القدس، ويصير واحداً مع يسوع. هذا أيضاً يحدث في المناولةِ المقدَّسة، إذ إنَّنا لا نأكل قطعةَ خبزٍ ولا نشربُ خمراً بل نتناول، فعلاً، الجسدَ

والدَّم الإلهيَّين ونصيرُ واحداً مع المسيح. والأمر سيّان في الزواج، إذ تَجمع نعمةُ الرّوح القدس هذين الشخصين عَبْرَ السرِّ المقدّس في الكنيسة، فيمْتَلِكا بركةً وفرصةً لتقديس حياتهما، وهذه النِّعمة تحفظُهما وتقوّيهما في مسيرتهما المشتركة نحو الملكوت.

في خدمة الإكليل يبارك الكاهن الخواتم والأكاليلَ بشكل صليب، لكي يؤكّد أنّ العلاقة تُبنى على نعمة الله وأنَّ لها طابعاً مصلوبيّاً، وأنَّهُ بهذا الصليب تصبحُ العلاقة تخطِّياً للذّات، وتجاوزاً للأنا. وعندما يسيرُ الإنسانُ في مسيرةِ الزّواج واضعاً نِصْبَ عينيه علامة الصّليب الكريم، فعندها يقدّس ذاته وعلاقاته، ويقدّس شريكه أيضاً. ومن المهمِّ للإنسان أن يعرفَ في مسيرة زواجِه أنَّه يتقدّم وينمو في علاقة تضحيةٍ بالنّفس، وأنَّهُ يُخلي ذاته ليقدِّمها للآخر لا ليُسيطر عليه. الله لم يسيطر على الإنسان، لكنَّه أحياهُ وأعطاهُ ذاته طعاماً بتناوله لجسده ودمه الكريمين، لإحياء النّفس ونُموّها وليس لاحْتلالها. إنَّ المحبّةَ تُحْيي، وهذا ما فعله المسيح أحيانا بحبِّه. المحبّةُ الحقيقيّةُ تحملُ في داخلها

سِمات صليب المسيح الذي هو الأساسُ الذي تُبنى عليه العلاقة. نعم، بالصليبِ تتقدَّسُ العلاقة ويعيش الإنسان مع الآخر نفساً وجسداً بأسلوب مباركٍ ومقدّس.

لا يقوم الزواجُ على الصداقة فقط، بل على أساسِ الاتّفاقِ والإعجابِ بعدّة أمورٍ بما فيها الناحيةُ الجسديّة، إذ لا بدَّ أن يكون هنالك جاذبيّة بين الطرفين لأنَّه لا يمكن للمرء أن يتزوّج مِمَن لا يجذُبه جسديّاً. ولكن، إذا كانت هذه الجاذبيّة هي المعيار فقط، فعندها سيكونُ الزواج مبنيّاً على أُسسٍ خاطئةٍ، ولن يستمرّ ولن يُثمر، أي أنَّ الاتّحادَ الجسديّ مع الشَّريك في ظلّ غياب الاتّحاد الروحيّ سيُلغي قيمةَ الشَّخص وحضورَهُ، لأنَّ العلاقة الجسديّة محدودةٌ، لا تعبّر عن الارتباط ولا تساعدُ في بناء علاقةٍ صحيحة، ولا تُعطي نتائجَ إيجابيّةً ولا تنفعُ إذا غاب البُعدُ الروحيّ عن حياةِ الزوجين، وخاصّة في هذه الأيّام، مع انتشار فكرِ الإباحيّة بشكلٍ عامّ والتّفلُّتِ الجنسيّ بشكلٍ خاص.

منذ فترة شاركتُ في أحد مؤتمرات علم الأخلاق

البيولوجيّ، وأُعجِبتُ بمُداخلة أحد المحاضرين، الذي تكلَّم عن كيفيَّة تعامل الطبيب بقدسيّةٍ مع المريض، وبخاصّةٍ مع جسده، حيثُ أكّدَ أنَّه ليس بإمكانهِ مثلاً أن يكشف عنه الغطاء وهو عارٍ بالكليّة ويفحصه بدون أي نوع من الخصوصيّة والاحترام. يكشف الطبيب فقط على المكانِ المطلوبِ فحصُه ولا يعرّي مريضَه من دون سبب مُقنعٍ أو مُلزم، وهذا يعني أنَّ حتّى مزاولة الطبِّ تتطلّب وجود الحدّ الأدنى من الحسّ المقدّس في العمل.

وفي حالة الموت، توصي الكنيسةُ بالتعامل بقدسيّةٍ مع جسد الراقد، حيث يتمُّ تجهيزُ الجسد للدفن بكل وقارٍ ولا يُعرّى الجسد بشكلٍ كامل؛ وهذا ليس لأنَّ الجسد دنسٌ، بل لأنَّ الله خلق كلَّ شيء حسناً، وخلق الجسد مُبارَكاً بكليّته دون أن تكون فيه أعضاءٌ خاطئة وأُخرى مقدّسة، لأنَّها تقدّست كلُّها بفعل سرّ المعموديّة. لذا، انطلاقاً من مبدأ احترام الخصوصيّة البشريّة، لا يمكن التعامل مع الجسد بطريقة غيرِ لائقة.

أذكر أنَّ أجدادنا وجدّاتنا كانوا يحتفظون بثوبِ اليومِ الأوّل بعد العرس، طالبين أن يَلبسوه في دفنهم دلالةً على ضمانة حياتهم الزوجيّة وقدسيّتها وجديّتها. أذكر أيضاً، بشكل خاص، يوم أخْبَرَتْ جدّتي أهلي عن فستانِها الأوَّل بعد زواجها، وكيف طلبت أن تلبسَه عند موتها، علماً بأنَّ جدّي كان قد توفي قبلها بعشرين سنة. كم جميلٌ أن يتقدّم الإنسان في مسيرة الزواج ويبقى أميناً لها حتى ساعة الموت. والحقيقةُ أنَّ هذه العادات تبقى تعبيراً حسيّاً عن هذا الالتزام المقدّس أمام الله والناس.

عندما يعيش الإنسان بأخلاقٍ حميدةٍ، مُتّبعاً تعاليم الكنيسة، ومُدركاً بشكلٍ واضح معاني خدمةِ سرِّ الزواج، ومُراقباً تصرفاتِه وأقوالَه، يَبني، عندئذ، زواجَه وعائلتَه على أساسِ بركةِ الله ونعمتِه ضامناً ثباتَ زواجِهِ ونجاحه واستمراريَّته.

سؤال:

ماذا عن العلاقات الحميمة قبل الزواج وفي فترة الخطوبة؟

لا بُدَّ من التأكيد أنَّه ليس بمقدور أيِّ شابٍّ أن يجد الفتاة المناسبةَ كي تكون شريكةَ حياتِهِ جاهزةً في علبة أو كيس بلاستيكيّ، ولا يمكنُه شرائَها من المحلاّت الكبرى بمواصفات محدّدة سابقاً، لأنَّ الشَّريك ليس سلعةً تُباعُ وتُشترى. لذا، من الطبيعيّ أن يتعرَّف الشابُّ والفتاةُ على بعضهما، وأن يخرجا سويّاً، وأن يتكلَّما ويتواصلا ضمن الأُطُر الأخلاقيّة المُتاحة، وأن يتخطّيا الخوف المرضيّ.

كنيستنا المقدّسة تُعلّمنا أن نتعاملَ مع الإنسانِ كإنسانٍ وليس كجنسٍ، وأن نرَ الشَّريك جميلاً ومقدّساً. هذا المستوى من النّضج يُعطي للطرفين فُرصَة بناء علاقتِهما دونَ عائقٍ أو خوف، وفرصةً لقضاء أيّامِهما معاً يتكلَّمان ويتناقشان ويمضيان وقتاً مُريحاً كلُّه حبٌّ وأمانةٌ واحترام وفرح.

هل وصلنا إلى هذه المرحلة من تردّي الأخلاق البشريّة بحيث أنَّه لا يمكن لشابٍّ وصبيّةٍ أن يجلسا مع بعضهما بدون وجودِ فكرٍ شرّير؟ هنا يبرُز دور التربية الصحيحة،

حيث يتعلَّم الإنسانُ أن ينظرَ ويتعامل مع الآخر كإنسانٍ وليس كجنس. الحقيقةُ أنَّ مَن يشبُّ على الأحاديثِ والمشاهدِ الفاسدةِ يحتاج لكثير من الجهاد ليستطيع أن ينظرَ إلى الآخر ويتعامل معه بشكلٍ صحيح؛ أمَّا من يتربّى على الفكر النقيّ يستطيع أن يتواصل مع الآخرِ بكثيرٍ من الرّاحة والسموّ، وأن يؤَسِّس لعلاقةٍ رائعةِ الجمال في زواجٍ مقدّس وعائلةٍ مُباركة.

بهذه الطريقة الواعية والنقيّة يستطيع الشابُّ والفتاة أن يتعرّفا على بعضهما بشكل سليمٍ، وأن يتخطَّيا الخوف في العلاقة، وأن يكونا جدِّيّين في اعترافهما بحبِّهما أمام الله، وهذا الاعترافُ يكون بقول الكلمة، كلمة الوعدِ والحبّ، ويتثبّت بالخاتم، فلا يعود لهما الحقّ فيما بعد بأن يتلاعب الواحد بمشاعرِ الآخر، لئلاّ يدفع الثَّمن غالياً فيما بعد، ويتعرّض للتجريح حتْماً كما كان يُجَرِّح الآخر. علينا ألاّ نُجَرِّح الآخر، ولننتبه حتى لا نحمل عبءَ دموعه وأحزانَه.

من المهمِّ جداً ألاّ تُصرِّحَ للآخر بمحبَّتك له قبل أن

ينضُج هذا الحبّ، ومن الأفضل أن تتركَه في تحرُّقٍ من أن تقول له كلمةً وتتراجع عنها لأنَّك غيرُ قادرٍ على الثَّبات بها. هذا الأمر يتطلَّب جدِّيّة أمام أنفسنا والله والآخر.

الخاتمُ إشارةٌ من الكنيسة لضمانةِ الكلام، وتعبيرٌ عن تثبيتِ القول.

... المطران أثناسيوس، نظراً لخبرته الكبيرة كأب روحيّ من جهة، وكراعٍ وأسقفٍ في الكنيسة من جهة أخرى، يُعبّر في أحاديثه بأسلوب أبويّ ومواهبيّ عن قلقه بشأن وَضْعِ الحياة العائليّة الحساس، ويُقدّم الإرشاد الروحيّ اللاّزمَ من خلال الكتاب المقدّس المُلهَم به من الله، ومن خلال التّعاليم المُنيرة لآباء الكنيسة القدّيسين، وأيضاً من خلال خبرته الآتية من تواصله وعلاقته مع آباءٍ شيوخ في الجبل المقدّس آثوس كالشيخ القدّيس باييسيوس الآثوسي...

من المقدمة